ماريا بين السهم والوتر

ماريا بين السهم والوتر

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٥٤٢٧ / ١١ / ٢٠١٥)

٨١٣,٩
عبد الرحيم، فاطمة يوسف
ماريا بين السهم والوتر / فاطمة يوسف عبد الرحيم.ـ عمان:
دار الحسن للنشر والتوزيع، ٢٠١٥
(١٦٨) ص.
ر.أ.: ٥٤٢٧ / ١١ / ٢٠١٥
الواصفات: / القصص العربية / / العصر الحديث /

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-10-047-6 (ردمك)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار

تعبّر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ ـ خلوي ٠٧٩٥٦٢٣٦٢١
ص.ب ١٨٢٧٤٢ ـ عمان ١١١١٨ الأردن
مجمع الفحيص التجاري. شارع الملك حسين. وسط البلد
e.mail: alhassanpub@hotmail.com

ماريا

بين السهم والوتر

رواية

تأليف

فاطمة يوسف عبد الرحيم

دار الحسن للنشر والتوزيع

ISBN 978-9957-10-047-6

المقدمة والإهداء

في معظم الأحيان يكون الإهداء لأشخاص نحبهم أو لهم أثر في حياتنا، لكنّي أحببت أن أهدي هذه الرواية إلى بطلتها ماريا التي كانت طالبتي في المرحلة الثانوية، ولأنّي عايشت معاناتها حين طوّحتها مصاعب الحياة وأثرت بي، فسردتها بواقعيتها حين طلبت مني كتابتها، وما زالت ماريا تقف على أرض صلبة ولم تكسرها المعاناة بل قوّت شكيمتها، لذا أحبّت ماريا أن تشارك الإهداء فكتبت للقارئ هذه الكلمات:

المعاناة لا تُهدى ولكنّي أقدمها للإنسانيّة لتمدّ لي يد الرحمة لقسوة ظروفي التي وردت عبر الصفحات، حاولت أن أكون مع مرور السنين منكم وأنا بينكم وأستنشق عطر محبة من علاقاتكم، لكنّي لم أحصد من مواقفكم سوى خيبات أمل متكررة وأحيانا قاتلة، لكنّ نبض قلبي ظلّ حيا وابتسمت للحياة، وقد أصحو يوما لأجد الضمائر النائمة قد تنبّهت من سبات غفلتها لتعاملني كإنسانة لأنّي لم أعتنق ديني لغايات شخصية بل اخترته لإيماني باكتمال شرائعه ونهجه وإنسانية تعاليمه، ويقيني أنّ الله العظيم القدرة سيحقق لي كلّ ما أصبو إليه وإيماني هو ذخيرتي بالحياة.

ذكريات مأزومة

١

مهما كانت حيائك قاسية تعايش معها ولا تلعنها أو تسبّها
فالأشياء لا تتغير بل نحن من يتغير
«هنري دايفيد»

احتشدت المحكمة الشرعيّة بأصحاب القضايا، القلق يغشى الوجوه والعيون مشدودة نحو مكتب القاضي راجية حكما عادلا، إنّ تعدد الجلسات وانتظار المحاميّة التي وكّلتها مؤسسة الرعاية الأسريّة لمتابعة قضيتي أوهن صبري وغيّبني باحتمالات حتمية وآمال واعدة. أخيرا أقبلت بملامح مشرقة لتعلن قرارا مصيريّا كأهزوجة نصر وكأنّها تحقق نصرا لكلّ النساء "القاضي ينظر في حيثيات القضية للنطق بالحكم الذي سيحررك من ظلم زوجك بعد نيل الطلاق، فالأدلّة تؤكد تجرّده من إنسانيته لأنّه أوقع عليك أقسى أساليب العنف الوحشي"، أرخت بشارتها سَكينة على نفسي ولوّنَت انتظاري بنفحات فرج، فتأمّلت ابني وهو يداعب أزرار جلبابي ومناغاته تعبق جذلا، وداخلني دفق فرح أموميّ فغمرته بحبّ وكأنّي أوسده قلبي.

علا بكاء ولدي وفاحت رائحة حفّاضه فلم أجد معي آخر لاستبداله، أسقطتني الحيرة في أتون العوز فأنقذتني من المأزق سيدة أوجدتها الشكوى بالمحكمة وبحوزتها حقيبة ابنها الرضيع، أعطتني فوطتين، بدّلت واحدة ووضعت الثانية في حقيبتي والتقم رضاعته، عاد فرح وجهه الصبوح وتماوجت ضحكاته بألوان ألق واحتضنته كأنّي امتلك كنوز الدنيا ورشقته بقبلاتي.

أعلنت وتيرة التحدي عن وجودي، لكن دمع الحسرة غلبني على ولدي الذي نخر الزمن براءة عمره بقسوة، وأقلقني حاله بعد الطلاق، لقد كانت أقصى أمانيّ

أن نحيا حياة أسريّة سعيدة مع أب فاضل لينال حظه من التربية الصالحة، لكنّ سامر الوهابي لا يملّ من النكد وفاقد لحنان الأبوّة، أنانيّ، ولا يمنح من متطلبات الرجولة إلا ذكوريته ولا يتحمّل مسؤولية أسرته.

نادى معلِن المحكمة المدّعية "ماريا إلياس جرجس" والمدّعى عليه "سامر أحمد الوهابي" توجّهتُ لمكتب القاضي لأمسك حبل نجاة من بحر عذاب ذقت فيه الأمرين، ومهرولة لاهفة وراء المحاميّة كطفل يسعى لنيل حلواه، اغتاظ سامر من لهفتي للخلاص منه، فتمتم بالسباب وهو يسير في الرواق، واغتظت منه لتجاهله مناغاة ابنه وميلانه نحوه، لكنّي تلافيته كي لا يباغتني هوس أوجاع قسوة نظراته وسُبّة أمقتها "أنت مجنونة" لأنّه يرددها حين لا يجد ردّا على تخاذله.

مثلنا أمام القاضي، وراوغني بنظرات محتشدة بأحقاد مزمنة، فتحاشيته وجمعت قواي ولملمت مفرداتي في جمل مقنعة وأدليت بإجابات واثقة بلا تلعثم لتبيّن صدق حالي، وحين سُئل أراد التملّص من الإجابة أو تقديم تبرير واهٍ، وبعد قراءة القضية أمره القاضي بأداء يمين الطلاق، بدا مأخوذا فاقدا لتوازنه كمن يبحث عن ظلّه، واستعصت عليه كلمة الحسم فتقاطرت نظرات الحضور دهِشة، حدجني بنظرة حارقة من غيظ مكبوت، نظرتُ إليه باستهانة، فقال بازدراء وكأنّه يتخلص من حشرة قابعة فوق أنفه "أنت طالق" سرى دبيب راحة بأوصالي لأنّي نلت حريتي.

غادرتُ المحكمة وتوارى حلم العيش في ظلّ أسرة مثالية، وارتحت من وحش آدمي امتهن إنسانيتي بالعذاب والحرمان. دَهمَني خوف لإقبالي على غدٍ غائم وابني يشهق بالبكاء كأنّه يبكي انهيار أسرة عانت خروقا إنسانيّة، احتضنته لتنصت أوصاله لدبيب روحي ويهدهده نعاس. عمتي تنتظرني وتغمرها فرحه خلاص "البيت اللي تربيتي فيه أولى فيكي" اندفعت لسيارتها بفرح من عرف طريقا واضح المعالم، لكنّ نبرتها الصارمة ونظرتها أربكتني "اركبي السيارة لوحدك" هدّ

الاضطراب قلبي "شو قصدك" ردّت بقسوة "وحياة ستنا العدرا، ابنك ما بيدخل بيتي ارميه لجدته هيه واقفة هناك" صعقة هزتني ولهاث خنقني "هادا ابني" ردّت "أنا ما بصرف على ابن الناس".

صرامتها تشتدّ ونظراتي تحتضنه لاهفة، ضممته لصدري وددت أن أجثو عند قدميها وأمرّغ يديّ بأتربة ابتلت بدمع حرّق خدّي وأصرخ بملء طاقتي "اترجاكِ، رح اشتغل خدّامة وأربيه" راوح حوارنا جدل خرافي واخترقه ومض برق وضجيج رعد، هاجمتني بأسئلة حيّرتني، ما العمل الذي سأخوض غماره بلا خبرات مهنيّة ومن سيرعى ولدي في غيابي؟ وبيّنت لي معاناتي إن بقي ابني معي، وصرّحت أنّها لن تتحمّل مسؤولية تربيته، وكان قرارا حياديّا لا رَجعة فيه واخترقتني نظرة إصرار لاذعة، وفكّرت باحتمالات عقليّة بلا عواطف إذ لا مكان ألجأ إليه إلا بيت عمتي، فاتجهت نحو جدته الغاضبة وأعطيتها ابني.

انتابني إحساس كمن يقتطع لحمه ويرميه للكلاب الضالة، قلت لجدته بصرامة "خذيه وبعدين رح أرجّعه" انبرت أم سامر بلؤم "هادا ولدنا وما ترجعي يا خرّابة البيوت"، اعتصرني الألم وابتلعني جوف السيارة، طفق دمعي يفرّ بغزارة وعمتي تناولني المناديل بنبرة وديّة "بعرفك قوية وبتتحمّلي"، في البيت فقدت السيطرة لأصخب نواحا حين تدفق حليب صدري لاحتياجه لي فتصدعت الجدران من هلوساتي وتمنّيت هدأة حال لأهيلها على قهري، وأيّ قوة ستصمد أمام أمومتي المجروحة! وتصدّرت رؤاي نهنهاته ولمعان عينيه المخضّلتين بالدمع.

تجسّدت حالة التخلي عنه كحقيقة قاسية انعكست في مرآة حياتي، كرهت سامر لأنّي قدّمت ما أستطيع لإسعاده لكنّه أدرك حاجتي لمكان يأويني وأسرة تحتويني، فتمرّد وضربني لصفاقته، لن أندم على رجل كان جدارا منقضّا وظلّا

حسيرا، حاولتُ قطع منوال البكاء كي لا تشعر عمتي بانكساري، لكنّها سمعتْ نواحي فهدّأتْ جنون عواصفي، وربّتت عليّ كتفي مواسية "ما تزعلي على قد طيبتك بكون وجعك وبعدك صبية رح تلاقي الأحسن" أيّدتها ولملمت أنفاسي وزفرت نفسا عميقا لأرمم حطامي.

* * *

٢

كنت أظن أنّ أسوأ شيء في الحياة أن تكون وحيدا
لكن أسوأ شيء أن ينتهي بك الأمر مع أشخاص تشعر معهم بالوحدة
«روبن ويليامز»

فاضت مشاعري بأنواء لاهبة وما عرفت النوم القرير منذ فارقت ابني، إن غفوت يوقظني دويّ يهشّم إغفاءة ترتطم بصدى أنينه ونهنهاته، فأخاله متنقّلا ببصره بين الوجوه باحثا عني، وتلتهب حسرتي عليه حين أفتح حقيبتي لأرى بقايا رضاعته وزجاجة دوائه التي شدّتني لأصداء طفولة هبّت عليّ بضراوة.

* * *

انهالت عليّ ذكريات محفورة بنفسي، لأنّي ترعرعتُ بين أحضان الشقاء، ما زلت أذكرها وهي أمام مرآتها أشدّ ثوبها "ماما بدي آكل" تردّ بلؤم "حلّي عنّي بتاكلي وما تشبعي خلّي عمتك طعميك"، عندما ينتابني حكاك بين فخذيّ لقذارة سروالي الداخلي، تحكي بقرف "خلّي عمتك تغيّرك الكيلوت وتحممك" أبكي لتغافلها عني راجية الاهتمام، لكنّ مرآتها الغائمة لا تُريها إلا ذاتها، فأنزوي مع لعبتي لأشدّ شعرها "ليه ما بتحبي بنتك".

هذه الصور المتداخلة والغائرة في خبايا الذاكرة ومتاهات الحرمان أشعرتني بحقد دفين نحو أمّي، وكوّنت مني كائنا يعجّ بالتحدي والانتقام، وكثيرا ما داخلتني فرحة شماتة حين كان أبي يصفعها مستفسرا عن مصدر أموالها، فيثور تلاسنهما الجارح وتبيّن له أنّ أوهامه استثنائية لأنّها رئيسة لقسم مهم في الشركة وأموالها مكافأة من صفقات تيسّر تنفيذها. كان عملها هروبا من الفقر ومن أبي السكير ولتكفي نفقات امرأة متعالية باذخة على أناقتها، لأنّ جدتي كررت على

مسمعي أنّ أمّي بعد عراكها معه كانت تعايره بفقره وتمنّ عليه بإنفاقها على بيتنا وخمره، فيجثو عند قدميها متلمّسا جسدها بحنو وراجيّا رضاها لتنام معه لأنّه يعشقها حدّ الوله، فترفض غارسة خناجر قسوتها في سريره لأنّها لا تشتهيه ولا تريد طفلا آخر منه.

كان أبي يظلّ ساكن الجسد متوثب النفس وتهدده وهي مغلقة لجيبي أنفها مشمئزة من رائحة نفسه المخمور "والله ما بكونلك مرة وبتمنّى تطلقني" ويرتفع الشدّ الكلاميّ بينهما ويرتدّ مهزوما كسيرا أمام جبروتها، فأتهاوى خوفا من ألم الفقد وأمسك تلابيب ثوبها لأمسح دمعي مستعطفة "ما تتركينا، بحبك ماما" فتدفعني بلؤم يقصم روحي "انقلعي لعند عمتك ولأبوكي السكّير المعتّر" فيعتذر لها ونظراته تكتسي بالانكسار ويصدعه رنين كعبها وهي تنسحب بخطى فيليّة وكأنّ نظراته مثبّتة بلوحة سريالية لامرأة شهيّة مكتنزة بلا روح، كثيرا ما تلصلصت عليها لأرى ملامح باهتة وأرقب مشية امرأة تلملم أعضاءها بإغراء، كنت أرقبها وهي تتأنّق لتبرز مفاتنها وتكثر مساحيق على بشرة بيضاء موشاة بلون ورديّ لتزداد جمالا، وتُخفي ذاتا ما قدرت سبر غورها، فاغتاظ وأتلف أدوات زينتها خفية، واستلب أحمر الشفاه، وتضربني بقسوة وتتمتم ساخرة من أهلي.

كانت أمي وما زالت تعشق ذاتها وترفض ما وصل إليه حالها وواقعها، كثيرا ما كررت جدتي على مسمعي الحدث المريع الذي أدّى لانفصالهما النهائي، إذ كان أبي يذهب لعملها لأخذ ثمن كؤوسه لإحراجها، مرّة رفضت إعطائه أمام زميلها العراقي "ما بصرف فلوسي على سكّير ما بيسوى شي بسوق الرجال" فثارت كرامته واحترق غضبه وطوت نظراته أخيلة شكّ ثائر، استعرّ بينهما الشجار وتحدّاها بصلف مطلقا رصاصة عند قدميها من مسدس لا يفارقه "باميلا، الشغل خلّاكي تسيبي ورح أشلك وما تطلعي من البيت" انتفضت بجنون وأطبقت

بحنق على رقبته لتخنقه، هذه الحادثة أثارت قضية في المحكمة وعلى أثرها وقع الطلاق، فتركتنا وبكاها أبي بأسىً "باميلا، ما عادت منّا".

حين أسأل عمتي عنها تنظر لي بغضب "ما تسألي عن العاهرة"، تغضبني الكلمات التي تجرّح أمّي فتحتضنني عمتي لنغرق بدمع وجع، وعندما تسرّح شعري تجدله بقهر وتندد بكلمات على مسمع أبي الكئيب "ما تزعل عا واحدة عمايلها بتقولك اخسرني" وتعنّفه جدتي متحسرة "خسى الحبّ اللي ذلّك يا إلياس، يا ما قلتلك خود من طين بلادك ولطّ خدادك"، واجهته بأسئلة منهنهة برغبة شوق لأمّي "ليه تركتنا ماما؟"، فيردّ بانكسار لذكراها ويواري ثورة جامحة "أمّك بتحبّ بهرجة الدنيا وبدها مصاري كتير وأنا فقير وأنانيّتها ضيّعت صبرها" ويماحك دمعة تراءت من طرف عينه، أدركت مغزى كلامه لاحقا لأنّ أمّي من بيئة لا ترى الدنيا إلا من خلال جمالها ومتعتها.

أسدل فراقها على حياته عذابا مستديما، وانهارت روابط أسرة متهتكة وتقبّلتُ الحياة بدونها مختزنة لهفتي إليها سنين طويلة، أغدقت عمتي حنانها عليّ، ورعت أبٍّ كليم في كرامته، وسكنّا زمن الانتظار في منزل كائن في بلدة الفحيص، لم يستيقظ أبي من سطوة لحظاته المخمورة إلا بعد صحوته من نوم عميق ليحتضن كمانه عازفا لحنا شجيّا لينجو من صراعه مع الصبر والخمر، لكنّه كان يتذوّق الموسيقى برهافة معقّدة لأنّها مهرب من هموم مثقلة بأحزان وجيعة، وأشاركه نزف دمعه ونتماوج على إيقاع موسيقاه متأثّرين بحزن دفين وحبّ كبير لأمّي، فأحنو لأواسي ذلّته، فيردد نائحا "باميلا ما بتستاهل حبّي الكبير".

ظلّ أبي يبكي هدأة الأطلال الراحلة، فتحتدّ جدّتي من قسوة واقع عتيد "إلياس، الحبّ ما بطعمي خبز اصحى لحالك وبجوزك أحسن من العكروتة السايبة"، رغم استيائي منها تمور براكيني وأكبت شذرات حنقي، لأنّه يستعصي

عليّ تقبّل نعت أمّي بصفات معيبة، ويهدهد أبي الحنين، فيحنّ عليّ ليعوّضني حبّها المفقود، وتضافر الهمّ الدفين عليه وبقلت لحيته الرماديّة كأنّها نباتات شوكية لترسم ملامح وجه كئيب، واندثرت تضاريس اتصفت بالوسامة وتتطاول شعره الأشعث ليشي بعبثية مطلقة.

* * *

٣

تتكون الحياة من لحظات رحيل كثيرة واحدة تلو الأخرى
«تشارلز دكنز»

ألقت بي الذكرى في قيعان الأسى، وفي غمرة التيه تلاشى وجه أبي البشوش وبرزت ملامح يخفُّها الشحوب، واستمر على هذا المنوال لآخر أيامه، أيقظني يوما رنين الهاتف من نوم لذيذ، ردّ أبي وأغرق الدمع وجهه الخسيف وتناثرت هلوساته المريرة، تمايل كأنّه في أرض وعرة، وتشبّث بي كمعتوه واحتضنني كطفل بائس أضاع أمّه "أمك خاينة وما عندها وفا" لم أدرك ما سمعه عبر الهاتف، ولمَ ثارت ثائرته مكيلا لها سبابا استقذرته أذناي.

كانت ثوراته تهدأ حين يخطّ همومه في أوراقه الصفراء صدى آلامه، فالكتابة تخفف قهره وتجلو صدأ عذابه كي لا ندرك حجم مآسيه، أعدّ قهوته المرّة بمرارة وجوده، تناول دواء الكبد الذي أتلفه إدمان الخمر، قلت بسذاجة "خربش عالورق بترتاح" نظر إليّ بقسوة إيحاء "حبيبتي، ما رح أكتب، القلم ببكي وجعي والحبر نشف فينا"، أشاح وجهه ليخفي دمعه، ونبّهني، إن التقيت يوما بأمّي، لا يليق أن تعلم أنّ دمعا حفر خده لأجلها، واعتذر لأنّه لم يترك من حطام الدنيا إلا أوراقا صفراء، وعدته بالمحافظة عليها للاطلاع على مكنونها لمّا أدرك معنى ما أقرأ.

صباحا ابتدرني ببشاشة واهية، عيناه ساهمتان للّاشيء، احتضن كمانه بيدين مرتجفتين وبدا نبض عروقه يئن من أخاديد مهجورة ليعزف إيقاع "فالدي" لترتقي ألحانه حزينة كأنّه يترنّح على حواشي موت يحاصره في عتمة بحر هائج، ناولته القهوة "بدك شي قبل ما أروح على المدرسة" همّ بلملمة قواه الواهية ليحتضنني "أعطيني آخر بوسة" قلت مستغربة "لما أرجع بعطيك مئة بوسة، لأنّي تأخرت" وصوت بوق حافلة المدرسة يناديني، هبطت الدرج مسرعة لكنّي توقّفت

لأتذكّر شرائط شعري البيضاء التي نسيتها على طاولة أدويته وعدت لإحضارها.

انتبهت لزجاجة دوائه الفارغة التي كانت ممتلئة من لحظات، وجهه يميل للاصفرار وهلوساته تُساقط صبّارا، الزامور يحثني للنزول فلم استفسر. بعد ساعتين فُتح باب الصفّ لأجد عمتي وعمي أمامي والحزن يكتسحهما وقرأت نعوة أبي في عيونهما المنتفخة، تراءت لي الزجاجة الفارغة، وحملت حقيبتي قبل أن يعلنا خبر موته وخرجت معهما، غمرتني عمتي بدفء ثمّ حملني عمّي محاولا إخفاء دمعه وجيعة وتمنيت أن يحملني بقية عمري، ومرّت أحداث لم استوعب مداها وتفاصيلها.

كان وجه أبي مغطىً، فصرخت هلعا لفقد الحبيب وأردت البكاء فعاندني الدمع لأنفث حسرات، رأيت صورة أمي ملقاة أرضا وزجاجة الدواء فارغة وساعة الجدار تثرثر تكاتها بلا مبالاة، وجهاز السكري يشكو فقده وكأس خمره مشروخة وقلمه يئن حروفا مبتورة، غادرنا وصدى كمانه يدندن أهزوجة تيه، وسّدتْ نظراتي جثمانه المسجّى حتى تُعدّ تجهيزات الدفن، لقد رفع أبي أشرعة الرحيل وأنهى حياته عملاقا كالنخيل بعد أن استنفد طاقات الألم النفسي.

توافد القليل من المعزّين لقلة معارفنا، حضرت أمّي العزاء بوجه مشعّ بألوانه وجلستْ بملامح جامدة متجاهلة الحضور، عاتبتها عمتي "شمتانة، عشان هيك ما عملتي مكياج عزا"، لم تواسني، صعّرت خدها ووشّحتني بنظرة قاسية "صرتي يتيمة" رددتُ "من الاتنين" هاجمتني "يا مقصوفة كلامك أكبر منك بدك تربية" أردت أن أبين لها أنّ إهمالها جعل الهرم يلامس طفولتي لكنّ مفرداتي خذلتني فلم أتفوّه بكلمة، مدّت يدها لتعزّي جدتي فرفضت مصافحتها وشاكس الغضب نبرتها "باميلا انقلعي من هون بتقتلي القتيل وبتمشي بجنازته" ردّت حانقة "الحق عليّ عملتكم قيمة" غادرت مقهورة، وانتظرت التفاتة لحظة خروجها لتوقّع رحيلها بنظرة حانية، لكنّها داست وجودي بعجرفتها.

سرنا مع بزوغ الشمس خلف نعش يترنّح فوق السيارة في طرق وعرة إلى مدفن العائلة، وصلنا المقبرة المتاخمة للكنيسة ولهاث جدّتي يعلو مثقلا بغبار الموت لتبدأ مراسم الدفن، أصغينا بسكينة لتراتيل الخوري والارتجاف يمور داخلي مرددين "آمين، آمين"، احتواني حزن عميق فالميّت أبي الغالي وحزني عليه لا حدود له، وطنّت في أذنيّ صرخة الظروف التي أبأسته، ترحّمت عليه وسألت الله أن يغفر له رغم معاصيه لأنّه طيب القلب.

اكتسحت معاناة الفقد جذوة عمري ودهمتني مشاعر يُتم، عتبت عليه لأنّه لم يلوّح تلويحة وداع تليق بهيبة اللحظات الأخيرة، واستقرت صرخة الموت في غورِ النَّبضِ الساكِنِ في صَدري، خبّأت أوراقه الصفراء وصورة أمي وكمانه وآخر كأس خمر حطّمها لمّا طوّحته هاوية التيه في العليّة مع بقايا مدخراته.

كانت العليّة ملاذي الوحيد في طفولتي مع دميتي الأثيرة "باربي" هدية عمّي، اسميتها "باميلا" وحافظت عليها كجزء مني، وربطتني معها ألفة حوار وطيف صداقة وبادلتني أدوارا وهميّة، أخالها أمي التي أرجو أن تهبني حبّا وحنانا، أو أعنّفها لرفضها كياني، أو أشكو لها همّي وأسرد قصصي ومشاكساتي.

حين كنت أغضب من جدتي أخبئ في حقيبتي صورة أبي وأوراقه، ودميتي وقطعة النايلون التي تفرشها عمتي كي لا يبلل بولي اللاإرادي فراشي، ومتعلقات لا أريد أن أفقدها كفقد والدي كي أغادر البيت، فتسأل جدتي "ولك يا قاروطة البين لوين بدك تروحي"، أردّ بأسىً يجتاحني "للمقبرة" فتسخر مني "ليه، عشان تموتي ونرتاح منك" فأجيب بانكسار "بدي أروح استنى الموت عند إلياس" فتغمرني عمتي بقبلاتها وتهدّئ روع قلبي الذي ينقر ضربا يخضّ صدري وتركّز حدقتيها بوجهي "أنت إلي ومن عظام هالرقبة، ما تخافي يا بنت الغالي".

لم تقصّر عمتي في تربيتي وفرّغت أمومتها المتأخرة في رعايتي، نقلتني إلى

مدرسة "لاتين الفحيص" تكلفت بدراستي "مش خسارة فيكي أحسن تعليم يا غالية" انحصر تفكيري في مستقبل واعد وحياة مستقرة، متغافلة عن التوغل في دروب الماضي الشائك، اتّصفتُ بذكاء متوقد ومثابرة في طلب العلّم آملة إدراك فحوى أوراق أبي لأعرف قصته مع أمّي.

انتابني حنين لأمّي فرجوت عمتي أن تأخذني لها فرفضت بقسوة "ما بدنا إيّاها، وهي سبب مصايبنا" وكأنّها تعرف أشياء تخفيها عني، ومع ذلك حاولتْ الوصول إليها من خلال المعارف كي لا توهن روابط الأمومة بيننا ولترضيني، لكنّ محاولاتها فشلت واعتذرت أمّي عن لقائي لأسباب واهية، قهرتني قسوة الفقد، ودست مشاعري وتغافلت عن وجودها، وانقطعت أخبارها عنّي، اكتسبتُ من عمتي قوة الإرادة والجرأة في اتخاذ القرار في الوقت المناسب واعتدت مواجهة الصعاب، ولم أعبأ بالنتائج وتحدّيت الأعاصير التي عصفت بحياتي.

***

خافت عمتي شبح العنوسة حين قاربت الثلاثين، ورغبت الزواج من موظف أعجب بها في الشركة التي تعمل بها وطلبها للزواج، أخبرتْ جدتي فجنّ غضبها وحملقت بها "مجنونة، ما برضى تتجوزي مسلم وإن تجوّزتيه لا بنتي ولا بعرفك" وكانت رغبة عمتي للزواج طاغية، فلملمت شتات قوتها لتبدو مسيطرة على الموقف وصوتها واثق غير مهزوز "ما طلبني ولا نصراني مناسب، لازم أتجوز رضيتي أو ما رضيتي وشرّط عليه مستحيل أبدل نصرانيتي وأنا حبيته وين المشكلة" أنثالت تهديداتها "أخوكي رح يرفض وبيجي من ألمانيا يقصف عمرك" توسّلتْها "خبّرت جوزيف وأقنعته وما عندو مانع، الله يخليكي وافقي حتى أتزوج على خير، ليصير عندي عيلة".

يئست جدتي من ردّها عن رغبتها فأذعنت لها "اعملي ما بدا لك هبلة ما

بتعرفي مصلحتك، وإن طلّقك ما ترجعي لي" لكنّ جدتي في سريرتها فرحة لأنّ عمتي ستتحرر من العنوسة لتكوّن عائلة، إذ كثيرا ما حكت جدتي "الرجّال بالبيت رحمة حتى لو كان فحمة"، زواج عمتي يعني خروجها من بيتنا، فشعرت بتهدّم داخلي لأنّها حياتي وجدتي لن تقدر على رعايتي وبقائي معها غير محتمل لنفورها مني أحيانا بسبب كرهها لأمّي، ولأنّها تكرر سرد أحداث حاضرة بقوة في شيخوختها فتشعرني بالسأم.

شعرت بي عمتي وأكّدت لي أن زوجها وافق أن أعيش معهم "لا تخافي ما بفرّط فيكي يا غالية" وأقامت حفلة عائليّة لتقنين النفقات وكي لا تتصادم العائلتان في العادات والتقاليد والعرف الديني، لم ترحل جدتي معنا لعدم قدرتها على فراق بيتها وجيرانها، ولرفضها العيش في حيّ غالبية سكانه من المسلمين، بعد أسبوع من زواجها انتقلتُ لبيت عمتي في جبل الزهور.

كان زوج عمتي دمث الخلق سخيّ التودُّد يعاملني كابنته، وأنفقت عمتي عليّ من راتبها وخصّتني بغرفة في بيتها لكنّ حنيني دائم لعليّة جدتي الزاخرة بأشيائها العتيقة والتي كانت مسرح خيالي ومنوال أحلامي، حرصنا على زيارة جدتي من وقت لآخر وحيّرني تنبيهها "لا تحكي مع مسلمين" فحسبت أنّ المسلم ذئب، ومع الأيام خالطت صويحباتي المسلمات ولعبت معهنّ، فتنهرني عمتي "ما تصاحبي مسلمات" وكأنّها تخاف من شيء ما، أنجبت عمتي ولدين "عاصم ومعتز" وعددتهما أخويّ وظللت ابنتها المدللة، وتذوّقت دفء الاستقرار الأسريّ.

كنت أحيانا أتقاعس دلعا عن مساعدتها بأعمال المنزل، عايرتني "قومي اشتغلي بلقمتك" فأحسست بغصّة وغضبت لكرامتي لأنّ نثار كلامها يجرحني، فتضمني لترتق عزّة نفسي "كلّه من ورا قلبي يا بنت الغالي"، في إحدى المرات شعرت بالغيرة لاهتمامها بولديها أكثر مني، تقصّدتُ إيذاءهما بشدّة فعاقبتني وحطمتْ

دميتي الأثير، وبكيتها كأنّي فقدت غاليا، عندما كبرت فهمت وعذرتها لأنّها تحميها بفطرة الأمومة، وأحيانا تهددني بالطرد من حياتها فأهدأ إذ لا ملجأ لي غيرها، مع الزمن أضحى عاصم ومعتز أخويّ، ويدافعان عني من لسع الزمن.

حرصنا على زيارة قبر والدي في المقبرة النائية في ذكراه السنوية، فنلبس السواد ونوزّع الفطائر ونقرأ من الإنجيل وأسرد عند قبره حكايا ذاكرة معتّقة بالوجع، فيحتجّ زوج عمتي المسلم "النسوان ما بتزور المقبرة والأموات بحاجة للدعاء والصدقة" فأدعو لأبي واتصدّق بالقليل من مصروفي. كانت أحيانا تقع بعض المشاحنات والملاسنات في نطاق الدفء الأسريّ لكنّها لم تصل للقطيعة، إن احتدّت تقذفني بحمم غضبها "يا بنت الحرام" فتزلزلني النبرة المقصودة وأذرف دمع ذلّة، فتحنو وتضمني لنغرق في حومة حبّ، ولأنّي لا أدرك الكثير عن طفولتي فأسألها "هل أنا بنت حرام!" وتتجاهل سؤالي لتعنّفني خواطر متضاربة بلا هوادة، فالتزم معاونتها بالأعباء المنزلية لثقل مسؤولياتها.

حادثة لن أنساها عندما أرسلتني عمتي لشراء علبة سمن من البقالة، فاعترض زوج عمتي على ذهابي "البنت للبيت" تردّ عمّتي "هي اللي بتحبّ تروح وتيجي" وقتها لم أكن تخلصت من استهتار الطفولة، رحّب بي "أبو الخل" البائع العجوز "أهلا بطتي الشقراء" فلمّا ناولته المال ضغط على يدي بقوة فتوجّست خيفة من نظراته المراوغة، ثمّ أسند سُلّمه عند أعلى الرف قائلا بمكر "بطتي ما بقدر أطلع أنتي ناوليني العلبة" صعدت، وإذ به يرفع طرف فستاني ويحدق من أسفله ويحسس مؤخرتي، فرميت العلبة فوق رأسه وسال دمه، وهربت لعمتي باكية فأسرعت إليه وضربته بالعصا "يا سافل بتتحرش في بنتي" ومنعني زوج عمتي من التسوق، ووثق بشجاعتي في المواقف الصعبة.

***

٤

إنّ الطريق مظلم وحالك فإذا لم تحترق أنت وأنا فمن سينير الطريق
«جيفارا»

في المرحلة الثانويّة اتسعت مداركي وأضحت المطالعة هوايتي المفضلة ونافذتي المعرفيّة التي أطلّ منها على العالم، وآن الأوان لأطّلع على ما حفلت به حياة أبي من أحداث. في ليلة رفضت مساماتي معانقة النوم فحملت إرث أبي الورقي وتسللت من سطوة عقلي المشتت لأنعم براحة نقلتني بين السطور باحثة عن تبعات تيه زمانه، وقرأت بعين دامعة رسالته الموّجه إليّ.

ابنتي الحبيبة ماريا:

لا يعنيني من العالم سواك لأنّك امتداد لكينونتي، وأرجو أن لا ترهبك حروف مأساتي الخافقة بالألم الخفي، هي أحداث واريتها كي لا تُدرك حجم معاناتي، وصرخة كلماتي تحفر كمُدية مغروسة في ريح خوف منسية، لا تلوميني إن أفزعتك حكايتي، ضعي اللوم على عثرات أمتي وقيل "نعيب الزمانا والعيب فينا". لقد وُلدنا زمن حرمان بعد أن شرّدنا مكر اليهود ولؤمهم، اعتدنا قسوة اللجوء لمواجهة أهداف بعيدة المدى، حرمتنا تبعات المواطنة وأضحت هويتنا عصية النسيان، وحصرتنا في مخيمات كأهداف ضحلة لأمنيات مستحيلة، وكللتنا أوهام في بلاد الشتات وزيّن لنا الإعلام أنّ طريق تحرير فلسطين مغطّى بزهور النصر، فاندفعنا للتحرير بعزم وبطولة.

التحقت بالمقاومة الفلسطينية لنحقق حلم النصر وخضنا جعجعة طحن قاسية، وغدونا مطحونين بدائرة مرصودة محكمة الإغلاق بالهزائم وانهيار الأماني والأحلام، وهمّشنا العرب في بوتقة ضجيج شعارات واعدة، واستباحت خطط

التآمر ساحات الذل والقهر التي ضاقت باللاجئين والنازحين والمهجرين، وصار اللجوء إرثا متواترا لأبعد مدى وهدفا لأقذر طغاة العالم.

مُزّقت القضية بنصل صدئ لتصفية حسابات أنظمة موالية أو معارضة وحوّلتهم عن أهدافهم لقتلى صراع إيدلوجيات بعيدة عن مسار القضيّة، وانقسمنا على ذواتنا لأنّ معظم الذين التحقوا بالثورة هزموا ذواتهم، فمنهم عاش حياته هامشيّا هلاميّا ومعلنا "بارودة لآخر الشهر" والبعض سقط في أتون الفسق والفجور وآخرون بحثوا عن مكاسب ماديّة أو أمجاد سياسيّة في لعبة المصلحة الذاتية، وغدونا دمىً تحركها خيوط مصالح دولية.

تساهلت بلاد اللجوء بالخلاص منّا بعد انتهاء دورنا في تحقيق أهداف مخالفة لأهداف المقاومة محتجّين بصغار عثراتنا، فلمّا حاصرتنا القوات الأردنية ودكّت مواقعنا في أحراش جرش تلقّينا الأوامر بالانسحاب للمخرج الوحيد لهذه الوقيعة الشائكة إلى لبنان، أشرق الأمل باسترجاع فلسطين ووُزّعنا حسب أهداف مرسومة، وظهر الفدائي في زيّه العسكريّ الفلسطينيّ "وصرنا فرجة" ولم يكتفِ زعماء الأحزاب بإثارة الحميّة لدور الفدائي بل فعّلوا أدوارهم وأبرزوا وجودهم على حساب الثورة.

لن أنسى يوم أمرني مسؤول الفرقة باغتيال زميلي "أبو الهدى" مدّعين أنّه عميل سرّب أسرار عمليّة أرادوا تنفيذها في الأرض المحتلة، اغتلته لأنّي أفضل هدّاف، لكنّ حشود الجماهير شيّعته بالحسرات على أنّه شهيد البطولة والمقاومة، وتبيّن أنّهم يختبرون قبول الثورة على المستوى الشعبي الفلسطيني اللبناني وعلمت أنّ أبا الهدى بريء من التهم المنسوبة إليه، وقد اختير ظلما وبهتانا، شيّعت ضميري الوطني في حمئة المشيعين، متى تتحرر القضيّة الفلسطينية من شباك المؤمرات العربيّة والدوليّة والضغوط التي تحجّم مكتسباتنا النضاليّة والسياسيّة.

اقتحمت دوامة التصفيات والمؤمرات، وطُلب مني الكثير من المهام المتشابهة وكنت دائما مخدوعا أو مأمورا، فهذا عميل للعدو وذاك عميل لتنظيم مخالف

لفكرهم أو معطّل لمصالحهم، لو رفضت، يكون مصيري القتل، نصحني صديقي القادري الثوري والرافض لمؤامراتهم وأيدلوجياتهم المزيّفة، وعليّ لا أضعف أمام أموالهم ولا أتجاهل الخطى اللاهثة خلف الترهات لتصفية رموز القضية لأننا نُباع كالنعاج مع القضية، ثمّ كلّفوني بتصفية القادري، رفضت، فهدّدوني بمحاكمة عسكرية وصادروا أموالي ولفّقوا تهما لا حصر لها، هزمتني ذاتي وأدركت أنّي في مستنقع قذر لايمكن النجاة منه فاغتلت القادري، وكسبت أموالا طائلة لمهام مخزية ورضيت بتنازلات قادتني للمحظور من سبل الانحراف وغرقت في سهرات المجون في النوادي الليلة.

في هذه الفترة تعرّفت على باميلا الفتاة الجبليّة، وامتلكتني بدوامة عشقي لها وأسرتني بكثرة طلباتها وحبّها الطاغي للمال، وضعفت أمام حصارهم لاحتياجي خوفا من فقد نبع المال الذي يرضي جشعها، تزوجنا وتمّ الإكليل في كنيسة سيدة حريصا في جونية، بعد ذلك بعثرتنا المؤامرات في منافي التيه ثمّ عدت إلى عمّان راغبا بالإقلاع عن متاهتي الخمر والسياسة.

وعدت نفسي بالتوبة بعد أن ثار ضميري أكبر ثوراته بمتاهة الندم ولم أصفح عن الذين أغرقوني في الدماء البريئة، لكنّ الهموم وقلّة ذات اليد وأنانيّة أمّك تواتروا عليّ، ومما زاد تيهي غضب جدتك التي استفاقت من وهم أحلامها ووخزتني من سكرتي وبصقت في وجهي "أنت بعت فلسطين مع اللي باعوها، ونسيت حلفانك، رح تحارب مع الثورة لتحرر الناصرة والقدس ونصلّي بكنيسة القيامة، كلكم دقيتونا خوازيق وصرت عرس ابن بارات ضيّعتو عاهرة، وهلق أنت إلياس أحمق باميلا".

حاولت أن أوضّح لجدتك أنّنا أكرهنا على ترك فلسطين بأفيائها المقدسة لأنّها بعيدة المنال، ونحن مضارب لمصالح خفيّة لا نعيها، وحُجّم دور سادتنا لأنّ لهم جبابرة يخافونهم، ولم ندرك هل صنعنا تاريخا مهزوما أم كنّا ضحاياه.

ألزمني مسار القضية التآلف مع الأنواء وغدوت مفرّغا من رغبات الحياة رافضا أيّ استقامة وهميّة لأرضي جدتك وأمّك والعالم، لم أعد كائنا ذا فائدة وانزلقتُ للحضيض، نبذتني أمّك من دائرة اهتماماتها وعملت لتكفي رفاهيتها، وألقت مسؤوليتك على عاتق عمتك، ثمّ خرجتْ من حياتنا. عاندتني سبل الحياة وفجّرت في داخلي قنبلة انشطارية بعثرتني شظايا لا حصر لها، وتلبّستني رغبة الموت انتحارا لأرتاح من حياة بوهميّة منكوبة، اعترفت لك لأحرر ذاكرة مثقلة بالأوجاع، ولأنّك الغالية أريدك رؤية بؤرة نور نقيّة وتهميش سواد حياتي...

إلياس المحب لابنته الغالية.

قلبت آخر ورقة وقد تحرّيت عن حقيقة غابت عن بصيرتي، رتبت شتات أوراق مهترئة بعثرها أرق السطور وسجّيت صورته بين طيّات تنوء بتفاصيل ضياع وطن وحظ عاثر، وعرفت سرّ عشقه للخمر وهروبه إليها من سطوات ضميره المعذّب، ومن فشله الذريع في جعل أمي تقبل به عاشقا متيّما، لقد رحل أبي محتفظا بسرّ موته وهاجمتني أسئلة حائرة للبحث عن الحقيقة، هل أنهى حياته لاندحار أمانيه في تحرير الوطن السليب؟ أو لأنّه لم يحقق حلم أمّه بالعودة للناصرة مدينة مسقط رأس أجداده، أو لأنّه حُرم الصلاة في كنيسة القيامة، وأرغم على خيانة القضية حين أذعن لقادته لتصفية الشرفاء مخدوعا بأسبابهم الوهميّة.

هل أُجبر على إتقان دور النذالة لأنّه من يخون وطنه كمن يخون نفسه حين يصف زوجته لصديقه ويغريه بجمالها ليستولي عليها، ربما لم تفارقه لعنة ضحاياه، فكأنّ أرواح الذين اغتالهم ظلما علقت به مثل قلادة شوكيّة أم انطبعت نظراتهم الأخيرة أثناء تصفيتهم كإيماءة حقد وكآبة، وتغلغلت في جسده لتومئ له بسحق روحه بيده، هل قتلته الخمر أو زجاجة الدواء الفارغة أو حقده على باميلا التي توارت من حياتنا، هل توافق جنونه مع جنون دونرفال ليموت منتحرا.

* * *

٥

يا له من جهد أن تبقى على قيد الحياة
«كافكا»

جدتي تريز امرأة حديديّة، تحدّت خيباتها وصبرت، ورغم مرارة العوز والتهجير وضياع الوطن، وربّت أبناءها على قيم حميدة موروثة، لكنّها فشلت في حصاد ثمارها؛ لأنّ المؤامرات الخفيّة نجحت في إفساد فكر الأجيال لطمس القضية برمتها، فأبي حمل السلاح لتحرير فلسطين لكنّه خيّب أملها حين رجع مؤطرا بالهزائم ومدمن خمر، وبرفقته زوجة يتنافر طبعها عن تقاليدهم.

عمي جوزيف هاجر لألمانيا ثمّ رجع بعد خسارة مشروعه الزراعي لجهله في تقنيات الزراعة، راغبا في بيع أراضٍ امتلكها جدّي في القدس لليهود ومحاولا إقناعها أنّ بيع أراضي القدس لاستثمار ثمنها وتكوين ثروات بأيّ مكان في العالم هو إثبات للوجود ونصر حقيقي على اليهود، لكنّها عنّفته وطردته لأنّه فكّر في بيع شبر من أرض فلسطين لليهود، فرجع يجترّ مأساة فشله اللامتناهية وانقطعت أخباره، وخذلها زواج عمتي من مسلم.

حقدت جدتي على أمّي لأنّها تسببت بضياع أبي وخسارته لأسباب نصره، ولأنّها تحبّ المظاهر البراقة والمال، وتتعالى عن مساعدة جدتي في المنزل، فإن طلبت منها أن تطبخ أو تنظّف المنزل فترد ساخرة "هيدا تخلّف جيبي سيرلنكيّة للبيت ودلفري من المطعم" حاولت جدتي إقناعها أننا شعب اعتاد حياة الخيام القاسية ولن نتكيّف مع رفاهية حياتها، وتُصاب بخيبة أمل فتعلق "ها اللبنانيّة ما بهمها إلا تتزين" ويوجعها تيه أبي المزري حين يكون مخمورا فتنهره متحسرة "تفو عليك يا إلياس خزيتنا من الداشرة، يا حيف عليك ليه تتجوز من بلد أهلها بيديّنوا

ليتزيّنوا، وملعون أبو الحبّ اللي كسرك لو تجوزت بنت الشماس أبو جورج اللي من شطارتها عمّر جوزها بيوت، وحالتهم فوق الريح".

لم ترغب جدتي في الانخراط بالحياة الاجتماعية إلا لتزور جارتيها، واقتصر خروجها للكنيسة أيام الآحاد والمناسبات الدينيّة كأعياد القديسين والشهر المريمي، فأحببتُ ورعها أثناء طقس الصلاة، وهيبة ركوعها لتمثال العذراء وابنها المصلوب للصلاة لأجل حاجة أو فكرة، وإن كان مزاجها رائقا تقرّبني منها لترسم شارة الصليب وتمسح رأسي، مرددة تحذيراتها التربوية وتتمتم تعويذاتها "مباركة بنت الغالي ومحروسة من القديسين والعذراء تحميك" فأردّ "الربّ يحميني يا تيتا لكن ليه العذرا ما تعطينيا مصاري وتهدي أبوي" فتردّ "انقلعي بلا حكي فاضي" وتنسحب بشهقات نائحة لتشكو هموم حسرتها وغربتها لنباتاتها العطرية كالزعتر والريحان والقصعين لترنم بموال كناي يحنّ لمنبته:

يا مضيع الذهـب بسوق الذهب تلقاه
يا مضيع حبيبـك تـمـر سـنة وتنسـاه
يا مضيع الوطـن فيـن الوطـن تلقـاه!

طلبت منها زراعة الكاردينيا والفل رفضت مقهورة على حال أبنائها "حلّي عنّي طالعة لأمك بتحبي النغنغة هاي بتذكرني بريحة بلادنا اللي أبوكي صار فدائي ليحررها ونرجع للناصرة لكن النسوان والخمرة خرّبوه، ملعون أبو الثورة شو إجانا منها ناس عمّرت قصور عالية وناس سكنت قبور هاوية، عمّك ضيّع مالنا وتغرّب ليدوّر عا وطن بآخر الدنيا وعمتك قهرتني وتجوزت مسلم حتى ما تعنّس" خفتُ عليها من ملوحة دمع ينسكب في حضرة الذكريات، غمرتني جدّتي بحبّ لمستُه في معاملتها مع أنّها أظهرت تخوّفا من حسن تربيتي لأنّ العرق دساس، لقناعتها أنّ أمّي من بلد تمارس فيه الدعارة في محلات مرخصة.

عانت جدتي من أمراض الشيخوخة وحرصتْ على كيس أدويتها وألزمتني قراءة وتوضيح نشراتها الطبيّة، وحين أرغب بمشاكستها أخبّئ كيس أدويتها فترتبك "لّما تصيري عجوز رح يكون عندك متله زوّادة آخر العمر وأضل أبلع دوا ليدق الموت ويوخد روحي ويوكلني الدود" وتلهث خلفي حين أخفي عصا شيخوختها أو سروالها، وأحيانا اقتحم مستودعها السري وهو كيس نقود تعلّقه في رقبتها وتسكنه بين النهدين الضخمين وتغوص يدي بحثا عنه لآخذ بعض القروش فتضربني، لأنسحب متقززة "إف، تيتا ريحة صدرك بتقرف" وأهرب ضاحكة قبل أن تطالني عصاها فتسبّني "يا بنت العكروته".

قلبها الرؤوم يسامح شقوتي وتواري دمعة عاندتها "رح أسكت كرامة للمرحوم أبوكي"، عندما يكون مزاجها رائقا أقبّلها فتحلّ كيسها لتغدق عليّ قروشها وأشتري احتياجاتي المدرسيّة وحلوى "المارشميلو" الذي أعشقه لأطفئ شراهتي، فتعنّفني "ما تتشهوني شيبس وبوظة يا هبلة، خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود والدنيا متل الرجال ما إلها أمان" وتميّزت جدتي بمهارة توفير متطلبات الحياة حسب ما يسمح لها ذكاؤها الفطري.

أحيانا أتأدّب في حضرة جبروتها آخذة وضعية المسكنة وأكتسي بالتذلل لأستدر عطفها فتزيد منحها الكريمة من ربع دينار لنصف دينار، مرّة أعطتني دينارين فذهبت لرحلة مدرسيّة للمُدرّج الروماني وسبيل الحوريات وشاهدت أسواق عمّان من جبل القلعة الذي له دور حضاري في تاريخ الأردن وشاهدت متحفها الذي يحكي حضارة الغابرين.

لم أدرك مدى قسوتها إلا حين انتقمت من قطّي "طبوش" الذي ربيته وأحببته أكثر من سكان المنزل إذ ملأ فراغي العاطفي وأشعرني بكياني، ويموء عند عودتي من المدرسة ويستعطفني لأسدّ جوعه ويمرّغ فروه بقدميّ، وانتقمت منه لأنّه

اقتنص سمكة فوضعت له مسحوق الفلفل الحار مكان جلوسه فتلوّى ألما حين لامس الفلفل مقعدته واختفى وبكيت فراقه.

أخذت سنون المراهقة تفترس طفولتي وتألق صباي عن جمال أخّاذ، رأتني جدّتي أشبه أمّي من خلال عينيها العسليتين وشعرها الأشقر الطويل وبدانتها الملتهبة أنوثة طاغية، فتحدق جدتي بنظرة سخط خفيّ "طالعة كاسرة متل اللي ما تتسمّى إمّها، ما قلة الحيا بتجري بالدم وتبيّن بالعين" فأتجاهل تعليقاتها وأطالبها بثمن الفوط الشهرية والقلائد والأقراط وأحمر الشفاه والجل الذي يكسر عناد شعري الأجعد، تنظر إليّ غاضبة "بتحب الزنطرة متل إمّها" فأغني لها "ستي يا ستي اشتقتلك يا ستي" فتمدح "يا مقصوفة متل أبوكي غاوية تغني" فأقول لها "تيتا، لازم نفرح ونخفف عن قلوبنا" لو أطعمت رفيقتي من حلواي تتباهى "ماريا كريمة متل أبوها" هكذا جدتي تعدّ السلوك الإيجابي من مورّثات أهل أبي والسلوك السلبي لأهل أمي.

عانت جدتي من آلام ركبتيها فتمشي للضرورة وتتمايل كبطة سمينة في أرض وعرة، ما زلت أذكرها بآخر رحلة ربيعية حين أخذتنا عمتي إلى شمال الأردن للموقع الأثري في "أم قيس" حيث الربيع يبهج النفس وصوت الجراد يغتال الصمت، أخذت تنوح حين أطلّت على بحيرة طبريا السليبة من القلعة ونهنهتها حسرات الزمان على ضياع فلسطين، وتنقلتْ في السهل بحثا عن طراوة الظل في عبّ الشجر أو الشمس، أجادت لعبة التجاذب بين الضوء والظل، وأذهلتها الخبيزة اليانعة "يي ما أحلاها، فايرة وكتيرة من ميّة المطر" وأخذت تجمع الخبيزة والهندباء وتسبّ اليهود "ملعون أبوهم سرقوا بلادنا وشرّدونا".

بدت تجري كطفلة في السهل ونظرها يلامس تخوم الوطن السليب خاصّة بحيرة طبريّا، وأرخت غيمة ربيعيّة داجية نثيث مطر وتحوّل لزخات عابقة بشذى

الربيع، ولفتت عمتي انتباهي "هاي ستك لّما شافت فلسطين من بعيد ردت روحها لأن الوطن بغلاوة الضنى ولقطتْ الخبيزة والهندبا ونسيت وجعها" وانتشينا من عبق الوطن المسروق وأدركت أن القهر أوهن شيخوختها. زرنا "الباقورة" المستردة من اليهود، أذهلنا مشروع اليهودي روتنبرغ لاستغلال نهري الأردن واليرموك غرب الباقورة لتوليد الطاقة ولإنارة فلسطين ولواء عجلون والذي أشرف على بنائه من مئة عام، فهم يخططون من مئة سنة خلت لمئة سنة قادمة، ونحن نسرف مقدراتنا للرفاه والبعض يسرقها أو يبيعها لهم.

عبرت السنون جسد جدتي وأضعفته، وأشفقتُ عليها حين تاهت ذاكرتها، وكأنّ حسرة الفقد عبثت بمكنون عقلها ليقتاته الزهايمر، وتداخلت الأزمنة بالأحداث وامتزج الحاضر بالماضي، واختلطت المشاهد بالوقائع في ذاكرة نخرة، وسطا الهذيان فاختلّ منظوم كلامها وغيّبت ذاكرتها وجوها حميمة، أخذت تكرر معاناة سرد حكايا اللجوء من الناصرة للقدس والنزوح منها إلى عمان. أغلقنا أفواهنا على سراديب معتمة، وبكيت مجد امرأة صلبة أضحت بلا عقل، إن خرجت يضيع الدرب منها وتمحو الذاكرة العناوين الباهتة، ويضطرب سلوكها فنضحك ونبكي حين تتبول على نفسها وتقتات ما تعفّن من الأطعمة في الزوايا المهملة.

تجاهل عمي حالنا، واستدركت عمتي حال جدتي وأودعتها دار المسنّين، لانشغالها في عملها وخوفا من توهانها بلا رجعة، وكي لا نكون مهوى الألسن، لم تطل معاناة جدتي وآلمني بوح همهمات انكسارها المتداعي لحظة احتضارها، وبكيتها لأنّي خلت صورة أبي المسكين الذي اختار موته بطريقة تراجيدية، ونثرت على جثمانها حفنة تراب في حفرة الموت، وبعد موتها انقطع مدد حبّ راوح الحزم واللين، وانتقل كيس مدخراتها إلى عمتي الذي تمنّيت أن يكون لي منه بعض الدنانير، وبدت الحياة حولي ساكنة، ولم أدرِ هل اخترت السكينة أم السكينة اختارتني!

***

٦

أشرقت ذاكرتي بوجوه اعتلت الأسوار لتحوّل الكراسات
لطائرات ورقية وأحلام وردية ولتتبادل حكايا شقوة المراهقة

تعثرت قدرة عمتي عن دفع تكاليف دراستي فنقلتني من مدرسة راهبات الورديّة بالمصدار إلى مدرسة حكوميّة في حيّ الزهور لتؤكد حقيقة توقّعتها "ولادي أولى بمالي" فلم أعترض، لو أنّ جدتي على قيد الحياة لفكّت كيسها ودفعت التكاليف ليس حرصا على تعليمي بل خوفا وقلقا من الاختلاط بالمسلمات.

انتظم نسيج المدرسة من خليط متنوّع الهويّة من أردنيات وفلسطينيات وشركسيات وسوريات، وقد جمعهم التقارب الثقافي والتوافق الاجتماعي وميّزهنّ الاختلاف السلوكي. لقد عاملتني الطالبات بجفوة، وأكثرن الهمز واللمز حول بدانتي وحول تعليقة الصليب التي في عنقي، فانتابني إحساس بالغربة لأنّي النصرانيّة الوحيدة، ومع الزمن ربط التآلف المكاني والتعليمي بيننا وأذاب السواتر الجليديّة، لم يؤثر اختلاف الدين على علاقتي بهنّ لرقي أخلاق غالبيتهن، ونعمت معهنّ بحميميّة ودّ افتقدتها، وكسبت صداقة الكلّ لجرأتي وتفوّقي بدراستي وخاصة باللغة الانجليزية.

لم أنجُ من المضايقات إذ تشاجرت لسبب تافه مع طالبة تعلم عن ظروفي حين سخرت من بدانتي وعايرتني "أنتي دبّة وما إلك أهل يلمّوكي" فشعرت بقسوة الحياة مع اليتم وكأنّ التيه هوى بي لقاع الذلّ وفجّر غيظي المكتوم فأقعدتها تحتي وضربتها ونزفت دما، حُوّلت للمرشدة ونصحتني بالحلم والرويّة والاهتمام بدراستي التي ستجعلني مدركة لأمور الحياة، وبيّنت أنّ المدرسة ملتقى كافّة طبقات المجتمع بتفاوت تقاليدهم وطباعهم وأخلاقهم وعليّ التحلّي بالصبر، ولا آخذ

حقّي بيدي وإلّا تحوّلت المدرسة لساحة صراع، وبعد جلسات إرشاديّة دوّنت تقريرها "شجاعة وعنيدة، لا تتنازل عن حقها ولا تخضع لأحد، ولا تقبل بالإهانة".

أحبتني معلماتي لتفوقي ولم أجد تبريرا لتحذير جدتي "ابتعدي عن المسلمين"، ربطتني مودّة خاصّة مع معلمة اللغة العربيّة السيدة رائدة التي بهرتني إنسانيتها الدافقة وكأنّها أمّ رؤوم، وعُرفت بالحزم وحسن المعاملة تاركة فسحة تقدير بيننا يصعب تجاوزها، وتأسرنا حين تلقي الشعر بانسيابية رهيفة، وتشرح سادرة بعمق فكرة النص الأدبي لأزداد حبّا للّغة العربية، وتتقد حماسا لأي فكرة عن القضية الفلسطينية فأخالها أبي الذي كان طرحه للقضية بوعي سياسي وحماس وطني، كانت حصّتها تموج بالحيويّة وتختلف عن حصة الرياضيات التي تزخر بالبلبلة ويكتسح الغباء العيون وتفور الأنفس بالملل، كأنّ شرح المعلمة دمدمة لا تفهم، مما يثير غضبها وحنقها.

كانت تجلس عند حافّة المقعد الأوّل الذي هو مقعدي لتوثّق علاقة القرب المكاني مع البنات، ومرتدية شالا طويلا من الفراء الدافئ كقلبها، حين يدغدغ قلوبنا البرد وتسترسل بالشرح أداعب طرف فرائها وأشعر بالفرح، فتبتسم بوداعة "هيك بتعملي مع ماما" أجبت "أمّي حيّة لكنّها ميتة في قلبي والألفة بالإحساس ما بالوجود" استفسرت لقسوة الجواب، وحكيتُ لها ظرفي في حصة فراغها، واحتضنتني وصبّرتني بعين دامعة.

في عيد الأمّ قدّمت لها هدية رفضتها وعدّت قبولها في هذا المقام رشوة، لأنّ المعلم والقاضي والشرطي لا يقبلون هدية لحساسيّة العلاقة، وبيّنت لها أنّي متفوقة ولست بحاجة لرشوة علامات وقبولها يعني لي الكثير لأنّي بحاجة لدفقات حنان مفقود وأرغب بالاحتفال كبقية البنات بتقديم هدية، فقالت "يا ريت ما في أعياد لأنها بتحرك نار المواجع" قبِلتها وعانقتها بحبّ "كلّ عام وأنت بخير يا أمّي"

وهدأ اضطرابي من لمسة حنان افتقدها.

قويت علاقتي بالمرشدة ولاحظت حزن نظراتها المغلّفة بإباء يصعب تغافله، سألتها، وحكت لي حكاية ابنتها التي خرجتْ من حياتها وآثرت العيش مع والدها بعد طلاقه لها، وحين تلتقي بأمها صدفة يتبدّى عبوسها اللئيم وتغيّر طريقها كي لا تحدّثها، وسبب رفضها لأمّها لأنّها دللتها بلا ضوابط، واستمرار الأب في تشويه صورة الأمّ في عين ابنته وتحريضه لها، وظلّت الأمّ تبكي فراقها وتأبى طلب العودة إليها تجنّبا لقسوة رفضها.

بعد حديثها خلت أننا في غابة يبست فيها جذور الحبّ، مع أنّ الشرائع السماويّة حثّت على برّ الوالدين والحفاظ على أسمى العلائق الإنسانية، وتبيّن لي أنّ هناك أمّهات يتنازلن عن الأبناء لأنانيّتهن وأبناء تقابل عطاء الوالدين بالجحود والنكران. قرّبت حسرات الزمن بيننا فطلبت منها مجازا تبادل الأدوار لتكون أمّي وأكون ابنتها، لم تؤيد الفكرة لأنّها أقدار علينا تقبّلها، فالمشاعر لا توهب ولا تتجزأ وتفرض سياقها على الذات، وأضحت سندا لي ألجأ لها عندما يغدر بي الناس فتساعدني قدر المستطاع، وأخبرها عن مرارة زمني فتذهل من قدرتي على المآسي وكأنّي معجونة من صخر، بيّنت لي أنّ من أسباب معاناتي العناد الذي أتصف به، لأنّ الحياة تسهُل إن قدمنا بعض التنازلات المقبولة.

من أجمل الذكريات التي تملؤني حين غدوت رئيسة مجلس الطالبات، وبتّ سديدة الرأي فتلجأ إليّ صاحباتي لحلّ مشاكلهن "من كتر ما دق على راسي طبول" تماهيت بالدور القيادي أثناء طابور الصباح لضبط الاصطفاف وإظهار الولاء للعلم. ولم أنسَ حكاية طالبة الثاني الأساسي حين أقبلت أثناء الطابور وشعرها منكوش ومريولها قذر وبكاء صاخب، هدّأت روعها وأوصلتها للمرشدة التي استنكرت هيئتها "ليه كل يوم تيجي مبهدلة نبّهتك ما تداومي إلا وأمّك معك"

ردّت بحرقة "ما رح تيجي ماما لأنو معها سرطان واليوم خبّوها بالثلاجة" فاحتضنتها المرشدة وتمنّيت لو أنّ أمّي التي رمتني بلا رحمة في ثلاجة الموتى، لأنّ الدنيا أم، وغرست المسكينة في قلبي سهما على حالي وحالها.

ربطتني بزميلتي هند صداقة ومحبّة قويّة لأنّها مؤدّبة ومن أسرة محافظة، لكنّي لاحظت تقرّبها من طالبة بلا خُلق فنصحتها الابتعاد عنها فتجاهلت تحذيري، يومها دخلت بداية الدوام ثم اختفت فجأة، فأعلمتْ مديرة المدرسة ذويها عن اختفائها لأنّها شوهدت تستقل مع الطالبة المنحرفة سيارة من أمام المدرسة، رجعتا مع انتهاء الدوام المدرسي وكان أخوها بالانتظار وتبيّن أنّهما كانتا مع شابين في نزهة إلى غابات "دبين" ورفع مُديته لقتلها، فأبعدته المديرة وبلّغت الشرطة عن نيته في قتلها، فتعهّد لهم بعدم إيذائها وأعادوها للدراسة بعد أسبوع.

سألتها عمّا حدث في مشوارها فأخبرتني أنّها اكتشفت أن زميلتها تمارس الفاحشة في المقعد الخلفي، خدعتها حين أبلغتها أنّه مشوارهما ترفيهيا، لكنّها لم تسمح للسائق لمسها فصحا ضميره وتركها، أمّا والد المنحرفة رفع الراية البيضاء بمنزله ووزّع الحلوى لأنّه ظهر بعد الكشف الطبي أنّ ابنته حافظت على غشاء بكارتها، لكنّ أخا هند ادّعى الرضى وأضمر شرا وأخذها لبلدتهم وقتلها ظلما، بكيتها بحرقة وكانت الفجيعة الثانية بعد موت والدي، وأذهلتني المفارقة في التعامل مع الخطيئة.

***

أقبل فصل الربيع علينا بإطلالة بهية، وأعلنت إدارة المدرسة عن رحلة إلى المدينة الوردية البتراء وكنت مساعدة المعلمة المشرفة على هذه الرحلة لتنظيم أمور الرحلة، انطلقنا في حافلة سياحيّة حين زحفت طلائع النور لتبدد فلول الظلام لزيارة المدينة التي بناها العرب الأنباط منذ ألفي سنة وصنّفت بالمرتبة الأولى من

عجائب الدنيا السبع، ووصل صدى شهرتها للعالم. لم نشعر بالسأم لطول الطريق لأننا لم نتوقف عن المرح وسماع الأغاني والرقص وأكل التسالي.

وصلنا المدينة الورديّة المختبئة خلف سلسلة جبليّة منيعة كقلعة مهيبة، أوغلنا مع الأفواج في ممر ضيق يسمّى "السيق" ويخترقه شعاع الشمس ليضفي تباينا دراماتيكيا ساحرا لخفوت الإنارة عند جوانبه الشاهقة، وروت نسائم السيق أمجاد عظماء السنين الخوالي. تسابقنا في الممر الطويل لنصل لضريح أوبيليسك المنحوت في المنحدر الصخري، ثمّ ابتلعتنا فجوة مظلمة لتقذفنا بعد خطوات للمنطقة الأكثر اتساعا على ميدان عريض لتطلّ الخزنة المهيبة المنحوتة بالصخر الشامخة تحت وهج الشمس وكأنّها من أشكال الوجود الأبدي والتمعت آلات التصوير لتسجّل أجمل الذكرى للطالبات مع المناظر المبهرة.

أخبرتنا المعلمة المشرفة عن ثرواتهم الطائلة التي جنوها من التجارة لبناء الأضرحة والقصور والأقواس والمعابد التي تميزت بواجهات منحوتة جميلة عابقة بعراقة التاريخ المنسيّة. جذبنا كلّ معلم للآخر بانطواء المسافات كأننا نتوغّل في آلة الزمن لنقتحم عهداً مفعماً بالإنجازات وذهلنا لعبقريتهم الكامنة. سار البعض على قدميه وآخرون اختاروا امتطاء ظهور الخيل لطول المسافة، قادنا الأخدود جنوبا إلى مذبح منحوت بالصخر وتذروا الرياح قمته حيث قُدمت القرابين لتمجيد الآلهة.

توقفنا في استراحة زاخرة بمجسّمات تذكاريّة لمعالم البتراء وتحف تقليدية وتراثيّة تعبّر عن فلسفة فكريّة في الشكل والمضمون، واقتنينا بعضها لنتذكّر مكانا انطبع بالذاكرة حين يجذبنا الحنين لذكراه. رأيت سائحا يحمل عجوزا على ظهره، فسألته عنها فبيّن أنّها أمّه التي اصطحبها من أقاصي الدنيا ليرفه عنها، وكأنّه يطبّق خلقا أمرنا الإسلام به، ما أعظم برّه لأمّه، وتساءلت، هل أقدر على برّ أمّي التي رمتني.

لبسنا قبعات القش لتحمينا من الشمس الحارقة، وواجهنا الوادي الكبير بصفين من الأعمدة أمام بقايا معبد الحديقة، مررنا بشق جداري أوصلنا لمعبد الجنود الرومانيين، ثمّ شارع الوجوه ذي الإطلالة النبطيّة، انعطف السيق الخارجي شمالا على مسرح رومانيّ النمط وعقدنا حلقات للدبكة فيه، ثمّ عانقَنا وجه السحاب لنصل قصر بنت فرعون التي تزوجت من رجل عمل المستحيل لإسعادها حين حقق شرطها للزواج منه بإيصال الماء لقصرها، لمّا وقفت بأعلى نقطة تساءلت، هل عمله شبه المستحيل حبّا لها أم طمعا بالجاه والسلطان، وحلمت بأمير يحقق لي المستحيل.

هبطنا لمتحف يضم آثارهم، وفي جبل هارون ضريح يظنّ أنّه يضمّ رفات النبي هارون عليه السلام، والإنجاز الحقيقي حين صعدنا ثمانمئة درجة لنصل للمعبد المسيحي المسمّى الدير وقد نحتت الصلبان على جدره الخلفيّة، استشرفنا واجهة النصب التذكاري وإطلالة رائعة لمنطقة البتراء ووادي عربة، وعند الغروب عانقت الأشعة صخورا وردية لتشكل لوحة فنيّة أخّاذة بتداخل الألوان وتناسقها، واعترانا التعب في الرواح.

* * *

كنت ألوذ إلى سطح البيت لمراقبة حمائم زوج عمتي في أبراجها، وأشاركه رعايتها مما وطّد المودّة بيننا ليغمرني بحنان أبوّة "ابنتي، الله يبارك فيكي"، أسرتني وداعة الحمائم ونظافة سلوكها، اعتدت التصفير والتلويح للحمام لتنظيم طيرانهم لأنّهم يغدون أسرابا ليتّقوا جوارح الطير خوفا أن تهوي صرعى وليمة تطفئ جمرة أكبادها، وأعجبتني سيادة روح المودة والتعاون والوفاء بين الذكر والأنثى، وهمست لذاتي لو أنّ علاقة أمي بأبي مثلهم لنجوت من التيه، وتمنّيت التحليق معهم لعوالم سحريّة مدهشة، وذكّرتني رابطة الحنين المكانيّ لديهم بجدتي التي

أبكاها الحنين إلى فلسطين، وشكوت لهم همومي وخلتهم يهدلون بأحزاني، وترنّمت مع زوج عمتي بأغنية تراثيّة "حمامة بيضا راحت عند صاحبها"، وهدلت بأذني رائعة محمود درويش:

فكم مرة تستطيعين أن تضعي في مناقير
هذا الحمام عناوين روحي
وأن تختفي كالمدى في السفوح
لأدرك أنك بابل، مصر، وشام.
كُلَّما أصغيتُ للحجرِ استمعتُ إلى
هديل يَمَامَةٍ بيضاءَ
تشهَق بي: أَخي! أنا أُخْتُكَ الصُغْرى
فأَذرف باسمها دَمْعَ الكلامِ.

***

منذ أن اجتاح الصبا كياني وخضّتني دماء المراهقة وقلبت التغيّرات الموازين، والروح تتلهّف لخوض قصة حبّ تضفي عبقا على عمري، ولأغوص رغبات عذبة يطلقها التجويف البليد في صدري، لقد ولدت مراهقتي من شتات طفولة بائسة وتلبّسني ضجيج حيرة، هل أفرّ من ماضٍ مشوه أفقدني توازني أم أسعى لمستقبل يعجّ بالطموحات؟ فأشكو حالي لعمتي فتردّ "ما تخافي من عركة المراهقة" انطويت خلف الروايات الغراميّة وهمْتُ شغفا بالأفلام العاطفية، فالحبّ من الأجناس الوجودية التي أوجدها الله في خلقه وتتفجّر فينا تلقائيا، وقيل "البنت سر أمّها" لكنّي مثل أبي أوهى من ورقة خريف في العشق، وأحببت على طريقة الحمائم التي تتقن مطارحة الغرام والصبر عليه.

في السطح المقابل رأيته والتقت نظراتنا كمرسال حبّ وتلتها عفوية البسمات والإشارات والتهبت مشاعرنا وتهاتفنا، وفّرت مصروفي لأخذ حصة مراجعة لمقابلة "وائل التعمري" بالمركز الثقافي الذي يتلقى فيه دروسا للتقوية، جذبتني وسامته وأناقته الثريّة، كنّا أحيانا نتبادل النظرات أثناء مناقشة الدرس وصهرنا الحبّ في بوتقة براءة العمر الغض بلا شهوات متوقّدة، وأغرقتنا أحلام ورديّة في هالة الفقاعات البراقة لخلجات الحبّ الشفيف وسيطر وائل على تفكيري وتمنيت أن أكون له.

لاحظت عمتي التغييرات التي طرأت عليّ، فاعترفت لها، وعدتني أن لا تشي بي عند زوجها خوفا من جرح ثقته بي، لأنّه يعُدّ حبّ المراهقة وقاحة وقلة أدب وماريا بنت عاقلة لا تفكر بجنون الحب "لو بنتي حبّت لكسّرتها" فأجبته "لكنك حبّيت عمتي" ردّ ناصحا "هاد حبّ العقل اللي هدفه الجواز" خفت من تلميحاته وحين قابلت وائل عرضت علية فكرة الزواج، فاعتذر لاستحالة الفكرة لبعد مشواره التعليمي ولأنّه يتمنّى تحقيق حلمه وحلم أهله بأن يكون طبيبا، وعُنّف حين شوهد برفقة النصرانية.

يجب أن لا تشغله عن دراسته أيّ فتاة، وتساءلت "هل يتزوجني لو كنت مسلمة!" في اللقاء الأخير قال "لو التقيت بك بعد تخرجي لتزوجتك"، لم يكن وعدا بل هروبا من حلم يصعب تحقيقه، اختفينا في ركن المركز وتعانقنا وارتعدت وكدت أتهاوى لهمس عشقه اللاهب وهدّأت قلبي الذي كاد يقفز من صدري، وقبّلني قبلة مازال مذاقها في نفسي، ولم يسعَ بعدها للقائي، حاصره أهله خوفا على

ضياع مستقبله، تساءلت لِمَ يلوّثون شيئاً أسطورياً سرمدياً لا مثيلَ له بشيءٍ لا يشبه الأشياء حوله!

عذرتهم لأنّي فتاة كثرت لاءاتها "لا أهل ولا مستقبل ولا عقيدة مشابهة" وأهله يملكون قدرة تحقيق حلمه، تمنّيت متابعة دراستي معه لكنّي لا أملك شيئا، ولأنّ عمتي اعتذرت عن متابعة تعليمي بسبب إنفاقها على دراسة ولديها بمدرسة خاصة لتحقق رغبة زوجها بالتعليم الأفضل، وتملّصتُ من وهم متابعة الدراسة الجامعيّة وأثريت ثقافتي بكثرة المطالعة في المجالات المعرفيّة.

* * *

٧

أمراض الأجساد يمكن أن تُشفى بسرعة، أما خراب النفوس
ودمار الأرواح فإنّه يستغرق أجيالا ليشفى
«د. مصطفى محمود»

تلقّت عمتي دعوة لحضور حفلة لإحدى معارفها في حيّ "الرابية" الذي يعدّ من أرقى أحياء عمّان، يعجّ بالفلل والقصور ذات التصاميم الرائعة، طلبت رفقتها ورحّبت، ارتديت أجمل ما لديّ لأبدو صبية تفتّح صباها عن جمال أخّاذ، عرّفت الجميع عليّ بمباهاة وجلستُ يكسوني حياء المراهقة لأرقب توافد المدعوات وأزياءهن التي تتماهى بالجمال، مما أثار شهيتي للعزّ والغوى.

لفت انتباهي قدوم سيدة تتباهى بجمال وأناقة الأثرياء فحدّقت فيها وكأنّي أعرفها، وإذ بوجه عمتي يكفهرّ وتدعوني للانسحاب "يللا نروّح ما بدنا نشوف هالشكل لو بعرف إنها جاي ما جيت" التفتت إلينا باضطراب، فقلت لها "ليه نروّح! ومين هاي" وتصدّت للمرأة باستياء "يا ست باميلا هاي بنتك ماريا.. القطة بتدوّر على ولادها، وين اختفيتي وما سألتي عن المسكينة وتركتيها لصارت صبية" أذهلتني المفاجأة واندفعت لأعانقها ملهوفة، لكنّها سلّمت عليّ باقتضاب وكأننا افترقنا يوم أمس، وليس من سنين، وقالت بجفوة "كبرتي ماريا" ولمحت ابتسامة واهية تعبّر عن وخزة ضمير خجلة لتقصيرها بحقي.

انسحبنا من المكان بتوتر شديد، وتمنّيت نشوء تواصل ألفة بيننا لتضمني بحبّ وحنين وتعوّضني عن احتياجات خفية ورغبات شكليّة. رغبت لرؤيتها ثانية فاتصلت بصديقة عمتي لتدلّني على عنوان أمّي، واستأذنت عمتي لزيارتها فاعترضت مؤكّدة أن لا فائدة ترجى من لقائها، رجوتها إعطائي فرصة للمحاولة

لعل اللقاء يذيب الجليد ويجدد الحنين، فذهبت إليها فاستقبلتني على مضض وافترشت وجودي عنوة، وتبيّن لي أنّها تزوجت قبل وفاة أبي بيوم من زميلها العراقي الذي يعمل معها في الشركة، وأدركت سرّ المكالمة التي وصلت لأبي ونقلت إليه خبر زواجها من العراقي، سألتها إن كانت تعرف سبب وفاة أبي "ردّت ما بهمني" فقلت لها "بابا انتحر لأنك تجوزتي" ردّت بسخرية مبطّنة بأسى "قصدك مات فطيس، يعني ارتاح وريّح" غضبت لعدم مبالاتها وبادرتها بملامح مرتجفة "بابا مات يوم عرسك"، توقّعت أن أرى نظرة حزن في عينيها لكن لا حياة لمن تنادي، لأنّها سيّدة النزعات الفردية التي تدمّر العلائق الحميمة.

دافعتُ عن أبي بحدّة وهالها إصراري على معرفة حكايتها معه قبل الزواج، لكنّها سدّت السبل باعتراضاتها المباغتة متعللة أنّ الذكرى تعكّر مزاجها قائلة بلؤم "حلّي عنّي ما بحب أسمع سيرتكم" وغلبني الدمع "فهميني ليه عمتي بتعايرني يا بنت الحرام"، رجوتها أن تفكّ شيفرة أسرارها التي هي جزء من حياتي، رضخت بعد جدال وسوّت قعدتها ونكّست رأسها وهرست جمرة سيكارتها، راحت بشرود قاتم وفي عينيها هلع مصطنع، وكأنّي استحوذتُ على ذاكرة انهمرت بأحداث عجفاء حسبتْها تلاشت، فجأة استنفرت صارخة "ما بدي أتذكّر المصايب" رددتُ بقهر "أنا الوعد المعتر بمصايبك".

طلبت صورتها في شبابها لأستثير ذكرياتها، وأحضرت بعض الصور، وزفرتْ بتأوّه فرح باهت "هاي قبل الإكليل كِنت حبلى فيكي" قلت لها "المره ما بتسلم حالها إلا لِرجّال بتعشقو" ردّت "إي غرمته من راسي لكعبي لكن بحبّ المصاري وحالي أكتر من أي شي"، حكت حكايتها مع أبي من لحظة لقائها به في بلدة إهدن في جبل لبنان، وكيف بُهرت ببطولة الفدائي وسلاحه وشعرت بالأمان، واستمعت لبطولاته حين كان محطّ إعجاب الجميع وسيّد المواقف السياسيّة

والعسكريّة، وألجمتها شعاراته الرنّانة لتحرير القدس ومهد المسيح والصلاة في كنيسة القيامة.

بارك أهلها حبّهما لانتمائهما للطائفة الكاثولكية، وهامت بوسامته وزرقة عينيه وبهرتها وفرة المال والهدايا، وصهرهما الحبّ في بوتقة الشهوة وجمعتهما خلوة في بيت أهلها فاشتعل السرير بهما ليفضّ بكارتها تحت وطأة الخمر، اعتذر منها، ولمّا بدأت أعراض الحمل اقترن بها وتمّت مراسيم الإكليل في كنيسة السيدة العذراء في جونية، بعد اعترافها قالت بعصبيّة "ارتاحي أنت بنت إلياس وبنتي لكن قبل الإكليل" فهمت مقصود عمتي وهدأت روحي، إذ لا يعنيني قبل الإكليل أو بعده.

هذه هي أمي لقد اقتاتت بنهم من عشقه الثمل واستباحت جيوبه برغباتها اللامتناهية ليفجّر قهره في حضيض الخمر واليأس بعد أن وصمته بالفقر والعجز والفسق، وأخذت حياتهما منحى السقوط مع من سقطوا في لهيب الحرب، وأسدلت الستارة على آخر فصل من حياتهما حين خرجا قسرا مع المقاومة من لبنان إلى تونس، ضاقت بعيشة المعسكرات القاسية فرحّلها إلى عمّان بعد أن أمّلها بسعة العيش لثراء أهله.

استقرا في بلدة الفحيص الجميلة والتي تشبه بأجوائها الجبل اللبناني، لكنّه اصطدم بواقع أليم لأنّ عمّي جوزيف أهدر ثروة العائلة على مشاريعه الخاسرة، فتداعت أحلامها اللازورديّة لتوقظ هواجس العصيان والرفض، وقد قيل"إذا دخل الفقر من الباب هرب الحبّ من الثقوب والنوافذ" وأقصته من حياتها لأنّها تريد رغد العيش، وعملت في شركة معروفة وأثبتت كفاءتها.

أثناء سردها توتّرت ملامحها ونفثت عيناها حنقا حارقا وكأنّ دويّا غاضبا متسربا من عمقها "الثورة علّمته الكسل والراحة وما فكر يشتغل ليكفي عازتنا، وعشت ذلّ الفقر والحاجة مع أهلك، وأنا بحب العزّ والغوى" وتذكرت بوح

هذيانه متعثرا بنداء حنون "باميلا أنا مجنونك" فتردّ بنفور ليزفر حشرجة أنفاسه "يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيّا".

ثمّ سألتُها "وين أنا بهالشراكة الخسرانة" ردّت بصوت مختلج "أنت بنت أهلك وما عندي استعداد أتحمل مسؤوليتك، أنا بدي عيش حياتي حرّة" وأوصلنا الجدال المرير لطرق مسدودة.

الآن اكتملت الصورة وأدركتُ أنّ سقوط أبي السحيق في بؤر الاغتيالات الوهمية أوجعه، وسلّمته انتقادات جدّتي للهوان والخذلان لأنّه لم يحقق لها حلم العودة البعيد المنال، واقتحم النزاع جدران البيت لرفض أمّي الفقر بعد أن قضت منه حوائجها وركلته كشيء لا قيمة له، لأنّه حين تتجذّر الأنا في حنايا الذات تشلّ قدرة العطاء الإنساني وتتحرك نوازع الأنانية نحو التدمير.

كان أبي صادقا حين حمل السلاح رغبة في تحرير وطنه، لكنّ صراع التنظيمات والتخاذل العربي ضيّع طموح الشرفاء، وأيقنت أنّه ضحية مؤامرات ارتكبت باسم المقاومة والتحرير، وضحية أنانية أمّي الجائرة التي أردَتْهُ في حومة الانهيار النفسي، ولم يحتمل عجزه عن تلبية حاجات ولعها بالمظاهر وبهرجة الدنيا، فلجأ للخمر بعد تراكم خيباته وهزائمه.

لن ألومه حين أفرغ الموت من زجاجة الدواء هربا منها وخلاصا من ذاته المخمورة، دعوت الله أن يغفر له لأنّه لم يكن واعيا وارتأى الهروب من مغاليق الصبر، لكنّي تعاطفت معها لأنّ الحياة الكريمة حقّ للجميع، بعد الاندماج بذاتيهما ارتقى إحساسي لذروة الأسى وهاجت أنفاسي وندبت حظي، مسكينة أنا ابنة الريح والإبهام، لأنّي غدوت ضحيّة أعتى حماقات باميلا وإلياس، ورغبت بالصراخ بأقصى صوتي لملء فراغ الرغبات المجنونة التي أضاعت وجودي.

***

واحة الإيمان

١

يريد الله أن يملأ النفوس المؤمنة برحمته حيث تواجه مصاعب الحياة
وبقلبها شعلة إيمان لا تنطفئ أبدا لأنها أمل متصل بالله سبحانه
«الشعراوي»

كانت شهادة الثانوية العامة أهم أحلامي وآخر مطافي التعليمي، لعدم قدرتي الوصول للجامعة ولرغبتي في دخول آفاق العمل النزيه، بدأتُ دراستي مأخوذة بأحلام يقظة ومستقبل حائر، صهرتني رفقة الطالبات في بوتقة الجدّ والمثابرة وأشعلت أحلامنا روح المنافسة وحوافز التفوق كأنّ أذهاننا بحار تستزيد من عطاء المعلمات الزاخر، واختلنا بكبرياء لأنّ الجميع يرانا مغاوير تخترق المدى لخوض معركة الحسم نحو الجامعة.

خذلتني فجوة التواصل الدراسيّ حين خيّرت بترك حصة التربية الإسلامية لأنّي نصرانية وغير مُلزمة بالامتحان، فالتجأت للمكتبة أو للساحة الخاوية التي تلسعني بوحشة الوحدة وقسوة البرد، ويشدّني حنين لأجواء الصفّ الزاخر بالشغب والمرح فأشعر بأنس الحياة، فقررت حضور الحصة، رحّبت معلمة الدين موضّحة أنّ الله واحد ربّ الخلق كلّهم والإسلام دين متمم لما قبله من الأديان، وكتاب التربية الإسلامية منهج قويم نقيّ المصدر زاخر بأحكام مختلفة من مناحي الحياة، وعقّبت "تعرّفي عليه كثقافة إنسانية" شدّتني العبارة الأخيرة وحبّذت فكرة التعرّف على ثقافة الآخر لمدّ جسور التواصل وطيب التعايش المشترك.

اكتنفني نور السطور ليشدني خوض الطالبات في حوار العقيدة والتوحيد ومسائل فقهيّة في الحقوق والواجبات والحدود والفرائض وتعرّفت على حقوق المرأة وأيقنت أنّ الدين أنصفها، تسرّبت آفاق نورانية عقلي عدّلت من عقيدتي

وبزغت شمس حقيقيّة لتزيل ملامح الإبهام حولي، تعمّقت في النهج الإسلامي على سبيل المعرفة والفضول بعيدا عن فكرة الاعتناق، فاكتسبت ثقافة جديدة وسيطرت عليّ حالة جديدة.

كانت المعلمة تدير دفّة الحوار بأسلوب راقٍ ووفق تقنيّة تربويّة تعليميّة وتشجّع إحضار المعلومة من مصادر خارجيّة، أذهلني الثراء الفكري لبعض الطالبات وقدرتهن العالية لمناقشة أدقّ الأمور الدينيّة، أخذت أشارك في المناقشة وأصيب الرأي في بعض المسائل الشرعيّة مما سرّ معلّمتي، وأدركت أنّ علم الدين ليس مقصورا على "رجل دين" بل فرض عين على كلّ مسلم ليعلم فقه دينه حسب قدراته وحاجاته لتقوية الرابطة الإنسانيّة ولتكوين السلوك الجماعي القويم، وكثيرا ما ظننت أنّ السلوك الخاطئ لكثير من المسلمين نابع من شرعة دينهم، لكن تبيّن أنّها عادات وتقاليد وممارسات خاطئة لا تمتّ للدين بصلة.

أصبحت أجواء المدرسة عالمي الخاص، وملأتْ فراغي الأسري والوجودي لأنّها أضفت تغييرا جذريّا على شخصيتي، شاركت في الأنشطة الاجتماعيّة والدينيّة، كتوزيع الصدقات على الطالبات المحتاجات والأسر الفقيرة في المجتمع المحلي في شهر رمضان، لامستْ إنسانيّة هذا الدين شغاف قلبي فترددتُ على المكتبة التي تزخر بمناهل ثريّة متعددة لكثافة المؤلفات في الفكر الإسلامي، استمعت للحوارات الدينيّة واختزنت معلومات لأثري بها جذوة الحوار في حصة الدين، سرت تعاليم الإسلام في دمي وفكري وانبلجت من ممر غائم وتسرّب النور إلى عقلي من دين يحاكي فطرة الإنسان في إدراكه للأشياء.

كان الفضول دافعي لمعرفة أحكام الإسلام فاقتحمت عوالمه وتشريعاته ونهلت من موارد متعددة لريّ ظمأ رغباتي المعرفيّة والثقافيّة، رأيت أنّ الأحكام الإسلاميّة واضحة بديهيّة ويتقبّلها العقل بيسر، فأدركت جوهر بعض تفاصيلة عن اقتدار،

رأيت نهج دين تميّز بالعقيدة الصحيحة وعدالة أحكامه وشموليّتها لمناحي الحياة وشرعة حق وعدل لصون كرامة الإنسان، أركانه حياة متكاملة ومنظّمة لعلاقات أفراد المجتمع، شعّت إيماءته روحانيات تقوّي إيماني وتلبّسني هاجس، وانبثق سؤال من القلب يمور حيران، لِـمَ لا اختار الطريق القويم وأكون مسلمة؟ خلت نفسي في أفلاك مشعّة تدوّخها مدارات تائهة وتغزوها بروق وامضة، وتضجّ رعودها من أغساق عميقة لينسلّ من الورق نور يمزّق عتمتي ويحملني لكواكب مضيئة بنور الإيمان.

تغلغل الإسلام رؤاي واكتسح ذرّات كياني وانتابني يقين أنّي مسلمة بالفطرة، وفي لحظة مصيريّة ارتقى بي وألزمني اعتناقه، أسررت نيّة الدخول في الإسلام ونطقت الشهادتين وتوكّلت على الله ودعوته أن يمدّني بالقوة ويحميني من هنّات ضعفي وشراسة أهلي، أجّلت الإشهار العلني وآثرت السريّة لزمن سريالي كي تتلاءم ظروفي وتشتدّ صلابتي لأتمكن من مواجهة أهلي بالأدلّة العقليّة، فالسريّة ستمنحني الجرأة لمواجهة زوابع أهلي وتجنّب رهبتهم، تسلّحت بإرادة وجسارة جعلتني أبدو كهلة حنّكتها الأيّام أو كفارس سيخوض غمار معركته في أرض موحلة.

أحببت نبيّ الرحمة محمد ﷺ وقرأت سيرته وأذهلتني عظمة أخلاقه وسلوك حياته الأسرية وإنسانيته، تمنّيت زوجا بأخلاقه. ليت المسلمين يتّخذونه قدوة لسلوكياتهم، واظبت البحث عن معلومات في حدود حاجتي وما يعينني على أداء فرائضي وتنمية قدراتي الواعية، لفهم أحكام هذا الدين، قرأت بعض الكتب الثقافية الدينية لتعميق الفهم مثل كتاب "لا تحزن" الذي شدّتني قيمه التربويّة المستمدّة من القرآن والسنّة، لأنّه يعالج أزمات النفس البشريّة تحت مظلة الدين وأعانني في مواقف كثيرة لمواجهة صعوبات الحياة.

أبلغتُ معلمة الدين باعتناقي للإسلام سرا، فرحتْ فرحا عظيما وأعلمتني أنّها

توقّعت إسلامي ومدّتني بزخم إرشادات، أهمّها تقوى الله والالتزام بأوامره والابتعاد عن نواهيه ومخافته في السر والعلن، أبلغتها عن وساوس تنخر ذاتي ونقاط ضعف كامنة بداخلي وخوفي من انهيار مقاومتي في مواجهة التحديات، وقد لا أقبل على الطاعة واستسهل المعصية، طمأنتني قائلة "نحن بشر غير معصومين عن الخطيئة لكنّ باب التوبة مشرّع، والاستغفار رحمة الله لخلقه" قطعتُ وعدا على نفسي بالالتزام بما أمرنا الله به مهما واجهت من تحدّيات.

تتبعت بشغف الأتقياء الدروس الدينيّة من خلال الفضائيّات أثناء غياب عمتي من البيت، وشاركت في حوارات حول ظاهرة الدعاة الجدد الذي ظهر أثرهم جليّا على تنوير الفكر الإسلامي لهذا الجيل مثل عمرو خالد ومحمود المصري وغيرهم، وبدوا كنجوم الفن لما لهم من أتباع، كأنّها صحوة للإسلام الذي غيّبه الاستعمار الفكري عقودا في مجاهل التجاهل.

استفسرت من معلمتي عن حال خلخل نواميس الطبيعة في رؤاي، سألت عن سبب تطور الغرب وتخلّف بلاد المسلمين ودينهم متكامل بأحكامه في جميع مناحي الحياة، ودار جدل كثير لبيان الأسباب لكنّي أيّدت قول أحد أئمة الإسلام "الدنيا تصلح بالكفر والعدل وتخرب بالإيمان والظلم وحين ينتصب ميزان العدل يتخم النمل البُرّ"، فالظلم يسري كالهشيم في بلادنا بيد المفسدين من ولاة أمرنا خِدمة للمصلحة الذاتية أو لصالح الأعداء، والظالم الذي لا تدينه محاكم الدنيا ويفلت من العقاب سيُعاقب في الآخرة، وهم كثر، ويشكّلون بؤر فساد متجددة، ولو أنّ لحكامنا شجاعة وعدل عمر بن الخطاب الذي قال "لو تعثّرت بغلة في الفرات لسئل عنها عمر" لأصبحنا من أعظم دول العالم.

***

٢

الغاية النهائية في كلّ إيمان وفي كلّ عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته
«الشعراوي»

عشت مرحلة الصراع الذاتي حين اعتنقت الإسلام لأنّ أزمتي الحقيقية في كيفية مواجهة عمتي لقرار سيقلب كلّ الموازين مع أنّ هذا الدين ليس غريبا عنّي وعنها، أنا تربّيت في بيت زوجها المسلم وراقت لي صلاته في الليل والفجر، وخشعت للأذان الذي اخترق روحي من مسجد الحي.

كانت عمتي تسمح لي بالسهر كلّ ليلة سبت وتنام لتصحو باكرا لعملها، وكنت مولعة بالأفلام العربية القديمة، وفي ليلة عرضت فضائية فيلم "رابعة العدوية" وأخذني لعوالم روحانية، استيقظت عمتي لقضاء حاجة فمرّت لتفجؤني متلبّسة برؤية الفيلم فنهرتني "ما تتفرجي على فيلم إسلامي مسخرة شوفي فيلم أجنبي أحسنلك" بدّلت القناة وتابعت الفيلم بعد نومها.

أذهلتني رابعة حين تخلّت عن سبل الانحراف والغواية التي سلكتْها وهي غانية ترفّه عن أثرياء القوم في ليالي السمر، وارتقت بروحها نحو الله وزهدت بالدنيا وتمسكت بقيم بالدين الحنيف ودافعت عن عقيدتها تحت سطوة التعذيب.

خلدت للنوم وقد تسرّبت رابعة لمخيّلتي ولتأخذني الأحلام لعوالم سرمدية مرتدية ثوبا أبيض ومسدلة على رأسي منديلا شفيفا ومتوشّحة بإزار لامع ومتوكئة على عصا تومض بالنجوم، سرتُ فوق الغيوم في دروب مضيئة والتقيتُ مع رابعة على غيمة وكأنّها خارجة من ملكوت الله تبحث عني ومدّت لي يدا بلورية، تأمّلتها والبهاء ينبثق منها لتضيء الأجواء بسنا تقواها، ارتبكت بتأتأة ذهول غافلة عن أبجدية الخطاب لوهجها وعزفت ترانيم تسبيحاتها لحنا شجيّا وفاحت أبخرة

مسك من أرديتها، رجوتها "خذيني لدرب الإسلام يا سيّدة التقوى" تعانقت أصابعنا وانتابتني رعشة هزّت أعماقي حين قالت: "ماريا أنت مسلمة نقيّة، أشهري إسلامك والله معك".

أمطرتْ ابتسامتها ياسمينا وتوهّجت لمرآها مفرداتي واعتصرتْ طهرا وبحت بكلام خارج حدود اللغات، لفّتنا ضبابية الغيم لتعمّدني بأبخرة المسك والعنبر، أسبلتْ جفنيها وأمرتني أن أسجد مبتهلة لله، ودمع الخشوع يروي وجناتي، وسرى همس واهٍ، ثمّ زفّتني الدفوف بإيقاع مضبوط ووميض الشموع يحيط بي، تراءت لي ملامح مبهمة وغاضبة، عمتي تلهث ورائي تلوح بسيف قاطع وعمّي يبرقع وجهي بصفعاته وأمّي متقززة، فألهث خلف رابعة لتواريني في خبايا ثوبها وتؤرجحني بجدائلها بغية النجاة مما أنا فيه، وتحتضني بقوة وتمتماتها تعويذة إيمانيّة تمدّني بالعزيمة لأُشهر إسلامي، استيقظت ودمعي يغرق وجهي.

أبلغت معلمة الدين عن رغبتي في إعلان إسلامي، فطلبت مني القدوم صباحا وقد اغتسلتُ وتوضأتُ واستحضرتُ نية إشهار الإسلام، رافقتها للإدارة ولقنتني الشهادتين ورددتُهما أمام بعض المعلّمات، صرت مسلمة على أن يظلّ إسلامي سريّا لأتدبّر أموري لمواجهة أهلي، وأنذرتني إن خرجت من هذا الدين أكون مرتدة والمسلم المرتد عقابه القتل، حدث هرج ومرج، هناك من بكت فرحا وأخرى صاحت دهِشة وثالثة هللت للبشارة.

انهالت المباركات والقبلات وطلبن الدعاء لهن فتعجّبت "أنا أدعو لهن!" وأكّدن لي أنني اليوم كيوم مولدي نقيّة من الذنوب ودعائي مستجاب، فرحت ودعوت الله لهنّ ولنفسي كي أشدّ أزري عند مواجهة أهلي، وحفظت بعض السور القصار وتعلّمت أداء الصلاة وصليت بمقعدي مما لفت انتباه معلمة اللغة العربية فأردفت "تقبل الله، أأسلمت؟" أومأت بالإيجاب "سرّا" احتضنتني دامعة وفرحتها لا توصف، وكأنّها عثرت على كنز.

صقلتني روحانية الإسلام ومتمماته الحياتيّة، وحين أكملت الثامنة عشر عاماً وثّقت إسلامي في المحكمة الشرعية، ونطقت أمام القاضي بالشهادتين واستلمت حجة الإسلام كي لا يكون لأحد سطوة عليّ، ولأنّه قراري الذي سأتحمّل تبعاته، خرجت مثقلة بأحلام وحدتي، وهذا قدري ولا أملك إلا التسليم به " قدّر الله وما شاء فعل" كان عليّ الالتزام بالإسلام شكلا ومضمونا، وركبتني الحيرة وشرع الله يحدد علاقتي مع الكل وعليّ الالتزام بشرائعه.

ووجب عليّ حماية لحمي كي لا تنهشه العيون، فأردت ارتداء الجلباب الشرعي الذي أهدته لي صديقتي وخبأته في خزانتي، وكان ارتداء الحجاب هو الخطوة الأولى للإشهار العلني لإسلامي، وكأنّي قائد سيشهر سيفه ليعلن ابتداء المعركة، جلدني التحدي الصلب لمواجهة عمتي التي لاحظت التغيّر الجذري على سلوكي واخترقتني نظراتها متسائلة "شو المصيبة اللي بتخبيها يا بنت إلياس" وتحلّق الدهشة باستدارة حدقتيها وتشرد حائرة لتخمّن ما بي، ويقينها أنّي ارتكبت حماقة عظيمة.

انهمرت الأسئلة: هل رسبت بامتحان أو تعرّضت لأذىً أو اغتُصبتِ وهدِر شرفك! عيناي تسرق انتباهها ولواذي للصمت يجعلها تضرب حنقها في جدران صلدة، لن تدرك عظمة ما فعلْته وستراه أعظم مصيبة، أوجعني قلقها ولا أريد خسرانها أو أثير غضبها، وهذا طريق حق سلكْته لأنه نجاتي في الدنيا والآخرة. كانت أول خطوة حين رأيت زوج عمتي يتجهّز لصلاة الفجر، توضأت، وحين أقام الصلاة تسللت بهدوء وصلّيت خلفه، بعد التسليم هزّته المفاجأة "أسلمت!" أومأت بالإيجاب فدمعت عيناه "مبارك يا بنتي، وأكيد عمتك ما عرفت، الله يعينك، رح أساندك أنا وولادي لإسلامك" ربّت عليّ ليقوّي تحدّي المواجهة.

***

٣

لو رأيت الكل يمشي عكسك لا تتردد امش حتى لو أصبحت وحيدا،
الوحدة خير من العيش عكس نفسك لإرضاء الآخرين
«جبران خليل جبران»

ليت عمتي تشهر إسلامها لأنها الأحوج إليه، كي تتّسق مع حال أسرتها المسلمة، لِـمَ تظلّ نافرة عن سربها المتعاضد، هل هو عناد لا مبرر له أم كبر أم ماذا! ظلت تهاجمني نظراتها، وأخيرا تماسكت لأرسم بسمة موت على علاقتنا وكأنّي ألفظ آخر كلمة حبّ على شفتيّ، دخلت غرفتي وارتديت الحجاب لأفتح باب الحرب على مصراعيه ووقفت لها بالمرصاد، انتفضتْ من حصار المفاجأة والذهول صائحة "مجنونة اشلحي القرف اللي لابستيه، إوعي تكوني أسلمت!" أعلنت "آه أسلمت، ما برجع عن ديني".

انفتح بيننا برزخ أمواج هائجة وانهالت عليّ بصفعات موجعة وركلات كوحش كاسر، وصبّ سبابها في أذنيّ صهدا ووجعا ولم ينج شعري من براثن كفيها، وحدجتْني بحقد "يا مجنونة روحي اطهّري واعترفي بطاقة الكنيسة واطلبي الغفران للخلاص من ذنبك" أعلنت "الله هداني لدين الحق ولن أتراجع" جحظت عيناها ولطمت خدّيها وتابعت برنامجها العقابي، وأبعدها زوجها وولداها فانهارت كثكلى، وألزمتني الأكل والنوم بالمطبخ، فصمت تطوّعا وغلّفتني سكينة لأخال الملائكة تشاركني إفطاري.

إن رأت معي كتابا تلعلع عبارات فحواها أنّ قراءة كتب الدين واستماعي للدروس الدينيّة من مذياعي أفسدني وأخرجني من نصرانيتي، ولن أحظى بالأمان وسأظلّ قابعة في تهويمات لا جدوى منها، حيّرتني تخميناتها، إذ كيف

ترضى أن يكون زوجها وأولادها مسلمين، وترفض إسلام ماريّا ابنة أخيها، أفاقت من ذهولها وأيقنت بتمسّكي الصلب ويئست من رجعتي للنصرانية، فأقبلت عليّ يُرنّحها غضب جارف وساقاها متلاطمان يلتفان حولي بركلات قاسية معلنة "ما تعيشي هون اطلعي برة".

تركت البيت والقهر يفتك بأيّ رغبة للانتظار وتقطّع قلبي حزنا لفراق بيت ربّاني ولا بديل لي سواه، وأقلقتني فكرة الضياع وجرّتني ساقاي لبيت صديقة لي تتوقع مجيئي في أيّ لحظة، بقيت أسبوعا كي تهدأ ثورة عمّتي التي لم تردّ على اتصالاتي، ثمّ اتصلت عمتي "تعالي" فرحت وحسبت أنّها استسلمت، لكنّها كانت أشدّ جفوة وأخبرتني أن ضيفا قادم في الغد ويجب أن ألتقي به، غلبني التعب على الأسئلة المحتشدة برأسي فلم ألحّ بالسؤال وذهبتُ لنوم مضطرب مُثقل بالكوابيس، فنهرتني "هادي الغرفة للضيف، نامي على جنبيّة بالمطبخ"، في الظهيرة نبّه غفوتي رنين الجرس، وإذ برجل يقف بالباب، ارتعدت منه.. احتضنني وانهال عليّ بقبلات حميمة، بدا صوته كنوتة موسيقية نشازها فاقع "ماريا، كبرتي وصرت حلوة كتير" بحثت في ذاكرتي عن ملامح غيّرتها الكهولة، لو لم يقف أمامي بلحمه وشحمه ما تذكرته، إنّه عمي مخائيل الذي ارتحل بعد وفاة والدي وانقطعت أخباره وتلاشى وجوده من حياتنا، ورانت بيننا نظرات عتب مرير وأدركت مغزاها، ألبسني تعليقة الصليب وسوارا من الذهب محفورا عليه صورة السيدة العذراء، وغرقت بالذهول.

علمت أن عمتي أرجعته للأردن بسببي، واجهت وجها مخضّبا بالمكر وعرض رزمة دنانير لم أخمّن عددها وتمنّيت امتلاك اليسير منها، وجمّل لي الحياة بألوان قوس المطر إن رافقته إلى ألمانيا، فسألته ببداهة "من الآخر شو الثمن؟" ردّ "ارجعي للنصرانية" تحرّك صمتي غيظا وواتتني جرأة باتت من طبعي مع الزمن، وشحنت

دواخلي بسلاح التحدي وبنفرة ألبستها رداء وقاحة ولم ترعبني ملامح وجهه الصارم "ما كان تديّني موضة لأغيّرها وما رح أرتد عن الإسلام لو قطّعت لحمي ورميته للكلاب، لقد هداني الله للإسلام، خلصنا وحل عنّي" وأفهمته أنّه لن يلزمني الرجوع عن قرار اتخذته بكامل قواي العقلية.

حدث بيني وبينه جدل طويل ليقنعني بأدلّة من الواقع ولتشويه صورة الإسلام وموضّحا أنّ عصبية شرائع الإسلام تسببت بتباين الحضارة بين الغرب وبلادنا لأنّ أحكام الإسلام سبب للتخلّف، والغرب متطوّر لأنّه يدين بالنصرانيّة، دافعت عن الدين الإسلامي وبيّنت له أنّ أهمّ مبدأ في الغرب أنّ الإنسان إذا نال حقه صلح حاله وحال مجتمعه، وهذا خلق إسلامي، لكنّ المسلمين تجاهلوا وسطيّة الإسلام وعدل شرائعه وتاهوا في غيابات العادات والتقليد الأعمى لفساد الغرب.

وصلت عمتي وأرهبني سطوع حقد عينيها، وكلّمها لدقائق مختصرا الزمن الذي لا يعنيه لأجلي، لقد رجع بعد عشر سنوات لأنّي أعلنت إسلامي ومارسا ضغطا عليّ بمختلف وسائل الإقناع، واجهته بقوة وذكّرته بهروبه من حياتنا بعد وفاة أبي وتغافله عن احتياجات وجودنا، متناسيا ابنة أخيه الطفلة اليتيمة وأمّه العجوز المريضة التي لم يفكّر بمهاتفتها، وتوفّيت وهي تتحسر شوقا إليه، ولم يحضر عزاءها، طاف ذاكرتي أسئلة، ما معنى أن يتذكرني الآن، وما يعني أن أكون على أيّ دين إذا لم يسأل عني كإنسانة من لحمه ودمه، هل هذا تديّن أم حقد على الإسلام!

أكسبني الظلم منعة المقاومة، ورجوته أن يعود من حيث أتى، ليمارس الخطايا التي يدّعي أنّها ستُمحى لحظة عمادته وهو على فراش الموت، وقدّرت نعمة الإسلام التي فتحت باب التوبة على مصراعيه والاستغفار حبل رحمة بين العبد وربه، رفضت الردّة عن ديني وعن تدخلهم في خصوصيتي، وأصدرا قرارا بطردي من حياة العائلة، وباغتني بضحكة حقود ليُبيّن عدم استسلامه ومهددا "أنا

رايح وما رح أتركك، وفي طريقة تردك للنصرانية" حرّك إصراري في صدريهما نوازع الغضب وانهالا عليّ صفعا، وأثقل خطوي الألم واجتاحني همّ طفح أثره على وجهي، استلقيت منهكة على الأريكة وانتشيت بانتصاري، اغتاظت من صلابة إصراري فصاحت "اطلعي وما تبقي هون".

رجع عمّي إلى غربته التي كانت هروبا من عالم مليء بالتناقضات السياسية وضياع حلم العودة إلى فلسطين، الغربة فرّغت من داخله قيما أخلاقيّة ليمارس الفسق والفجور، تاركا هداياه ومحتفظا برزمة أمواله، وأدركت أنّها خدعة لأنّه شحيح يقدّس المال، لكنّي تمنّيت لو تركه لحققت بعض أمنياتي. تركت البيت ولم ترفّ عينها حين قبّلت جبينها عنوة، وخرجت لا أملك شيئا من حطام الدنيا والعالم حولي أنقاض متهالكة لأقتحم دروبا حذرة من معاناة قادمة، وآملة أن ينصرني الله ويسترني، فلجأت لمركز ديني طالبة الإيواء فساندوني ماديّا ومعنويّا.

بعد شهر عدت لعمتي آملة بتغيير قناعتها ولأريها حجة الإسلام التي أخفيتها عنها لتعلم أن إسلامي حجة رسمية وثّقت في سجلات الحكومة "ماريا ابنة إلياس" مسلمة في مملكة الإيمان النقي، لأعود وأعيش معها مسلمة كأحد أولادها رفضت، ووقفتْ بوجهي كسد منيع قائلة "ارجعي بلا إسلامك" قررت الاعتماد على ذاتي لأكون حرّة في حياتي، مضيت للشارع لترشقني دوائر إضاءة السيارات المتلاحقة وتشجيني أناشيد الطرقات، وخلت أحزان المارّة تمتزج بحزني، وصوت يهمس لي "قد تبكي بكاء المضطر وتنام، والله لا ينام عن تدبير أمورك، لأنّه يدبّر إليك في الغيب أمورا لو علمتها لبكيت فرحا".

أيقنت أنّ الله معي ولجأت لفندق شعبي في سقف السيل في غرفة متدثرة بكل أنواع القذارة، وكأنّي انتقلت لعوالم مبهمة، أمسي كئيب وغدي مجهول لا أدري كنهه، لم يصدمني الواقع لأنّي توقعت الأسوأ، وفلوسي لن تكفي للإقامة في هذا

النزل الوضيع، فقضمت كسرة خبز وسمعت صليل أسناني يتعاظم لتفترس قهري، استسلمت لنوم عميق ووجدت نفسي بأحضان حلم غريب أنزلني في وادٍ سحيق، ومن حولي جبال شواهق وأنا أصرخ بالقاع متأرجحة بصخرة، ووحشة الطبيعة تدمي جسدي، فاستيقظت فزعة أستغفر ربي وأدعوه أن يعطيني خير هذا الحلم.

أرهقتني نفسي المتحاذقة على حيرة أمري، في الصباح خرجت لأبحث عن سكن بأحد الأحياء الشعبيّة التي أعرفها، صادفت في الطريق صديقة نصرانية كانت ترافقني للصلاة في الكنيسة، علمت بإسلامي فعدّتْه خطيئة لا تغتفر وأوقعني تنديدها وهجومها في حيرة، مع أنّ قراري شخصي لأنّي رأيت الإسلام يتفق وبُنيتي الفكريّة وحاجاتي الدنيويّة وأمان الآخرة، فاخترته، ولم أخطئ في اختيار عقيدتي وتوجيه ميولي حسب ما يتفق مع قناعاتي، فالاختيار حق إنساني، لأنّ كثيرا من الأمور يفترض التسليم بها كوجود أبوينا، ولو كانت اختيارا ما اخترت أُمّي.

عدت للفندق وبكيت بحرقة ولم أعرف النوم حتى السحر، وفي لحظات شجيّة صلّيت وناجيت ربي واختلطت دموعي الدافقة بابتهال هتك أستار الليل: ربّي، لا إله إلا أنت ربّ موسى وعيسى ومحمد، لقد اخترت الإسلام ديني، ليتني أرى بشارة تؤكد صواب اختياري ليطمئن قلبي. بعد لحظات خلت وجه شيخ جليل يسطع نورا يطلّ من نافذتي ويتدثر عباءة بيضاء يومئ لي بالإيجاب.

غلّفني وميض الارتياح لسكينة راوحت روحي، اطمأنّ قلبي لأنّ حدسي يؤكّد أنّ الرجل الذي خلته هو سيّد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام، أقسمت على ربّي تثبيت يقيني وفتحت القرآن وأغمضت عينيّ ووضعت أصبعي عند آية، لمّا رأيتها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، بكيت فرحا لأنّي في عين اليقين وهدأت روحي الحائرة وانهدّ ضجيجها.

* * *

٤

أدركت حين كبرت أن المشكلة ليست إضافة سنوات إلى حياتنا
ولكنها مشكلة إضافة حياة إلى سنواتنا
«أحمد بهجت»

ذهبت لأمّي لأتبين ردّة فعلها بعد إسلامي، في طريقي إليها انتابتني الهواجس، لو طردتني أيّ طريق سأسلك وما سيحلّ بي، انتظرتها ريثما تعود من عملها على عتبة شقتها الفاخرة في حيّ الرابية، هاجمتني أفكار ودموع، أنا البذرة التي أودعها القدر في رحمها بنشوة حبّ ثمّ نبذْتِني بمتاهات مغايرة لخياراتي، وقصم روحي تخلي عمتي، وصرتُ مثل نبتة جافة تأكلها غربة احتياج.

حين وصلتْ ارتجّتْ كمن صُعق بالكهرباء أو رأى جرذا، عقدتْ ما بين حاجبيها فتجاهلتُ قسوة اللقاء، وأردتُ يدا تربّت على كتفي وصدرا أبكي عليه ضياعي، عانقتُها، لكنّ جسدها الملول تملّص بجفوة هربا من حنيني، تمنّيت لو تضمّني لأرتشف من حنانها الشحيح، قالت بنفور: "فوتي، ما بَدي حدا يشوفك، ليه الحجاب، كِنتي بحفلة تنكريّة"؟ أعلنت دون مقدمات كي لا أخوض جدلا "أسلمتُ"، فاجأتني معلنة أنّ هذا الأمر لا يعنيها سواء كنتُ مسلمة أو نصرانية أو يهودية أو زرداشتية أو حتى من عبدة البقر، موقفها أراحني وقهرني، كأنّي لا أساوي شيئا برأيها وكل ما يعنيها أن لا يكون لأهلي وجود في حياتها.

حيّرني سؤال، لِـمَ التغاضي عن وجودي! هل لأنّ أبي فقير وسكّير ولم تتوافق مع أهله، أتأكل هي الحصرم وأنا أضرس! خضت معها جدلا مريرا لأصل لإجابة صريحة، أقلقتني احتمالات سادرة فوق طاقتي، ووصلت معها لأقسى لحظات اليأس وزاد نفورها مني، لأنّها شعرت بقوة حبّي لعمتي التي ربّتني ولم ترمِني كما فعلت، في نهاية الجدل ردّت باستعلاء وقرف "انقلعي نامي بغرفة

فاضية مُوَقّتا لتدبري حالك وتخلّي عني" احتضنتها بفرح عارم فتحررت مني بصعوبة.

أحببت أجواء الثراء وعملت المستحيل لإرضائها وأبديت استعدادا للعمل لديها خادمة ولتعلن للملأ: "إنّي خادمتها"، ردّت بقرف: "ما حدا بيصدق، عشانك بتشبهيني"، رجوتها العيش في مطبخها الأنيق لأطهو لها أشهى الأطعمة وتتصدّق عليّ من بقايا نفقتها الترفيهيّة ولن تتأثر ميزانيتها، رفضتْ وهاجمتني بعينين نفثتا حقدا: "ما قادرة أشوفك"، وعندما تعتصرني الأزمات المالية أطلب منها مالا عندما أكون مشاركة في جمعية لشراء أبسط احتياجاتي، ترفض فأهاجمها بنظرة غيظ لأنّها تحرمني خيراتها، وأقف مخذولة متسائلة متى ترحمني من بغض تأصّل في قلبها، أليست الرعاية والنفقة حقّ من الوالدين للأبناء! ليتها تخرج من أنانيتها وترحمني من ذل السؤال وتحميني كي لا يُنهش عرضي.

سكنتني رغبة البحث عن عمل فاستسلمت لها طوعا، لكن أيّ شركة توظّف بمؤهل الثانوية زمن ارتفاع البطالة التعليميّة! من خلال وجودي في بيتها اكتشفت أنّ معارفها يرونها أنيقة الزيّ لطيفة المعشر ولا يرون سواد قلبها، لكنّي أراها كتلة حقد موقوتة تتفجر مكائدا على معارفها الذين تراهم حسودين أو شامتين أو غيورين، لكنّها هي التي تتصف بتلك الطباع، رجّحتُ ذلك لأنّها من برج العقرب الذي يؤثر على طبع صاحبه ويجعله يصب سموم طبعه على الآخرين وإن لم يجد أحدا فإنّه يقرص نفسه حين تشتد عداوته.

غزلت معها حوارات عقيمة، ودهمني إنهاك تجذّرت مرارته في وديان نفسي وكأنّي أقطن قفرا نائيا، ناجيتها "كلّما اقتربتُ منك تبتعدين، كأنّ حواجزا تتطاول بيننا، فأرتدّ كسيرة الفؤاد والروح متخمة بالضياع، وتتداعت قوايَ، وكابدت الحزن لأضاجع خيباتي لتتوالد حسراتي".

***

في لحظة خارجة عن مسارات انكساراتي، امتدت يد متحاذقة بنفحة طيب لتخفف عني وجيعة الضياع، وذلك حين انتفضت تحت وقع سياط الحاجة التي جلدت روحي، فطالبتها بخمسة دنانير لشراء ملابس داخلية وفوط شهريّة، رفضت متعللة بأنّ الراتب بالكاد يكفي كماليات رفاهيتها، فجثوت بين يديها راجية مهيضة الجناح أستجدي منها صدقة، فلم تكترث لوجودي، وغمزت لها بأمنية "يا ريت تصرفي عليّ متل كلبتك" فتردّ بلؤم رافضة لرغباتي المشروعة وفلسفة تلميحاتي الفارغة.

لكنّ زوجها غافلها ودسّ بيدي عشرة دنانير خفية، وأصبت بدوار أفقدني قدرة التماسك من الفرح، لكنّي رفضتُ متلفعة بكبرياء يكسبني احتراما لذاتي، ولّما أصّر أخذتها، وأحيانا يحضر لي وجبات جاهزة وحلوى وكأنّه يزيّن لي العيش معها، فتجنّ وترمقه بغضب لاهتمامه بي دون داع، وإن رأتْهُ يتكرّم عليّ بخفقة حنان يشتعل غضبها وتوبّخه، فيبتعدْ لحرصه على رضاها ولاعتقاده أنّه حرمها الأولاد لأنّه عقيم، مع إنّ فكرة الإنجاب لا تعنيها، ولا ترغب بأولاد يحرمونها متع الحياة؛ لأنّها لا تحبّ إلا نفسها ولا تمتلك مستودع حنان كباقي الأمهات بل مستودع أنانية، وهي لا يعنيها إلّا التسوّق اليومي أو ارتياد المطاعم والسهرات الزاخرة بأنماط الرفاهيّة.

حذّرتني من التقرّب لزوجها؛ لأنّها لا تطيق أن تكلّمه امرأة على وجه الأرض، ولأضع حدّاً لمجزرة شكّها بوجود أدنى تفكير لعلاقة مع زوجها، أقسمت لها أنّ منزلته عندي كأبي، فتردّ بلؤم "الله يلعنك أنت وأبوكي، وما بدي سيرته" فأرجوها "الميت ما تجوز عليه إلا الرحمة" وبعد الخلاف ينتابني ندم لأنّي أتوه بعقدتها على المدى البعيد لأصاب بوعكة نفسيّة لحرماني حنانها.

المعروف أنّ الأمومة رمز للعطاء، لكن ما أفعل لحظي السيئ، ويلاحقني تناسل الأسئلة الذاتيّة لعلي استوضح سبب نفورها عبر ممارسات حقدها عليّ

وأتوه في مقاربات غامضة، ويحبطني غضبها حين أستدر عطف زوجها، فتلسعني غيرتها "ابعدي عنه ما بتحمّل ست تحكي معاه" غيرتها شككت بنقائي، وكرهتني لخلافها المستمر مع عمّتي لإدراكها أنّ حبّي لعمتي لا يعدله حبّ، وأيقنت أنّه يوجد قلوب لا تعرف الحبّ مهما أكرمتها وقلوب لا تعرف الحقد مهما ظلمتها، سبحان الله مقلّب القلوب.

ترحيب زوجها بي وعطفه عليّ فتح شقّا للنور في حناياي الكئيبة، فهو دمث الخلق لطيف الملقى، أمدني بعطف أبويّ خفي، كان ومازال يعمل مع أمّي في الشركة التجاريّة ويمتلك شقة الرابية المميّزة، تزوّج أمّي واستقر في عمّان بعد حرب "عاصفة الصحراء" بعد أن خسر معظم ثروته في العراق ومقتل زوجته.

حدّثني عن سالف أحوال العراق الذي جرّحه انقسامه لطوائف، ونُهبت ثرواته وخيراته بيد أعدائه والأنذال من أبنائه، وأباحوا سلبه مع عملاء جنّدهم أعوان الشيطان لتصبّ الدولة العظمى الموت الزؤام في أفنيته ودمّرتهم باسم السلام، تشرذم أهله وبكتهم مليون نخلة عراقيّة والآن وطنه يستجدي قمحه وقد كانت سلاله غامرة؛ لأنّهم وقعوا تحت سطوة سارقي الأوطان وهفت عزّته في الصراعات السياسية والطائفية والعرقيّة.

ظنّوا أنّهم سيعيدون مجده وعزّته لاعتقادهم أنّهم حرروه من نظام ظالم، لكنّهم استنجدوا بالمرتزقة ونصّبوهم على بؤر دمويّة في العراق، وأصبحوا مجتمعا خاضعا لسطوة العنف والإرهاب الهائلين اللذين صنعا أعتى الوحوش البشريّة، منها الافتراضي الوهمي أو أشخاص تحوّلوا من رائحة الدم لوحوش حقيقيّة، وكان لانتشار الشائعة وتصديقها وتأييدها أثرا باندفاع العنف كوسيلة لحل المشكلات والدفاع عن الوجود، وجعل الحرب الأهلية أمرا منطقيا، عليهم أن ينظروا بعين الوعي لما يحدث ويحللوا ولا يتغافلون عن هذه الذاكرة الحزينة.

* * *

٥

إننا نقتل أنفسنا عندما نضيّق خياراتنا في الحياة
«نلسون مانديلا»

طلبت من أمّي المساعدة لتعلّم مهنة التجميل التي قد تقيني شر العوز والفاقة ولأنّه لديّ قدرة على إتقانها، فتجاهلت رغبتي، وبحثت عن عمل فوجدت عملا كبائعة في محل للألبسة في جبل الحسين براتب جيد، وقبلت به لأني أتقن الجدل التسويقي المقنع، بعد مدّة ارتبت من نظرات صاحب المحل وسلوكه الشائن إذ كان يتعمّد ملامستي وأحيانا يتطاول لتناول شيء من الرفّ الذي فوق رأسي، فيلتصق بصدري فأتحاشاه بالانزواء خلف الطاولة، ولمّا أخبرته بظروفي الحياتية لمّح أنّ الفتاة يمكن أن تتمتع بعلاقة قبل الزواج، ليصرّح أنّ بإمكانه توفير شقة لي شرط أن أكون خليلته.

صددته وهاجمت تفكيره الشيطاني "اتق الله، أنت مسلم فالزنا كبيرة الفواحش"، وأدرك أنّي لست سهلة المنال وتعلّمت أن لا أحكي ظرفي إلا لمن أثق به، لكنّ تصرفاته حيّرتني، إذ كلمّا دخلت زبونة غرفة القياس يصعد للسدّة العلويّة ولا ينزل حتى تغادر، صعدت للسدّة لأحضر ملابس فرأيت كاميرا مسلّطة على غرفة القياس، المحل لا يحتاج لكاميرا مراقبة، دققت بالأمر واكتشفت أنّه يتفرّج على الزبونات أثناء خلع الملابس للقياس، أذهلني الموقف وقررت ترك العمل، افتعلت معه مشكلة فطردني، وبلّغت الشرطة، مررت لمحله فوجدته مغلقا عقابا على فعلته.

تناشجت بحرقة أمام أمّي، لم يعد مناص سوى البقاء مغمورة بطهري، وأمنياتي تلتهب برغبات مؤجلة، فرجوتها أن تساعدني في إيجاد عمل شريف من

خلال معارفها لحمايتي من التحرش، آملة تحرُّك نذر إحساس بالخوف عليّ، فردّت "ما رح تكوني إلا زي ما طلب منك صاحب المحل" لم أدرِ كيف أردّ على كلامها الجارح، فسددت أذنيّ ونقمتي تشدو لحن روحي الحائرة، بكيت وغطيت وجهي بكفيّ المرتعشتين كي لا أرى نظرات حقدها.

حاصرني اشتياق لعمتي هاتفتها لأخبرها بما آل إليه حالي، استقبلتني وبكيت بحرقة فاحتضنتني باكية لبكائي، وعاتبتني "كيف أرضى عنك بعد عملتك السودا، ما رح ارتاح حتى ترجعي لدينك" أنهيت حوارنا "هذه إرادة الله". تركتها تهذي بما تشاء فالإسلام صخرة لن تتزحزح من قلبي، وعمّتي امرأة التناقضات السلوكيّة أحيانا تمنحني حبّا لاهبا وأحيانا تقسو عليّ، في الزيارة الأخيرة ثارت قهرا حين رأتني أصلي مع أنّي حريصة على أداء صلاتي خفية عنها، اتصلت بأمّي "ما بدي ماريّا المسلمة".

ردّت أمّي "تعالي وأنا بدفعلك أجرة السيارة" استغربت سلوكها، في الطريق تناسلت الأسئلة، هل تيقّظ ضميرها وتقبّلتْ العيش معها أو يسّرت لي عملا؟ هربت من ضجّة تخميناتي ودمع حسرتي يروي حيرتي، وفضول السائق يراقبني لمعرفة ما بي، فتجاهلته وتذكّرت مأثور جدتي "لازم نبعد عن ثلاث شينات قاع البلد الشوفير والشرطي والشر.." لكنّه تعاطف معي وصبّرني بنصائح دينيّة، وكأنّ الحال تغيّر وصارت السياقة مهنة كريمة لانتشار البطالة، والكثير منهم متعلّمون وملتزمون دينيا.

كان السائق أربعينيا ملتحِيّا ووسيما، وأراد بذكاء أن يمدّ جسور الثقة بيننا فسرد قصة حياته لتكون مدخلا لمعرفة ما يبكيني مبيّنا تعرّضه لظلم زوجته التي خلعته لأنّه يساعد أخته لتعسّر ظروفها المادية ولعطفه عليها، فاستقبحت عملها متسائلة "وين الرحمة!" عمتي تطردني لأنّي أسلمت وأمّي تكرهني لحقدها على

أبي، وهذا المسكين تخلعه زوجته لتعاطفه مع ظروف أخته، حكيت له قصتي فقال: "لو المسلمين جمعولك دينار عشان يثبتوكي بدينك ما صار هادا حالك" وطلب مني أن أتصل به لو احتجت أيّ شيء، وتعاطفت معه وكأنّه إلياس الذي ارتحل.

استقبلتني أمّي بجفوة وأعطتني مالا لأنقده الأجر، رفض، شكرته وخبّأت المال، رحّب زوجها بحرارة الأبّ الحنون، قاطعتْه "قعدتها مُوّقتي"، حكيت لها حواري مع السائق وتعاطفه لظروفي وراقبت شرودها المباغت في تجليات الحكي، فالأمر لا يعنيها كحجر لا تشقّه مشاعر، استفسرت منها عن سبب طلبها لعودتي.

قالت بضحكة خبيثة: "لقيتلك شغل، بيوفر لك الأكل والشرب والنوم، بلا خبرة وأنت شاطرة فيه لكن شرط ما تحكي إنك بنتي"، فرحت واستعرضتْ مخيلتي نوع العمل الذي يوفر هذه المزايا، وخمّنت أنّ وساطتها مهمّة، تابعت بجسارة "شغل عند ست بعرفها من بعيد"، زمهرير صمت اجتاح الأجواء "شو الشغل؟" نظرت بازدراء "خدّامة" علا صوتي "لأ وألف مرة لأ، باميلا، هالشغل مش مقام ماريا بنت إلياس، أنتي حيّة ناعمة ولسانك بينقّط سمّ" ورغبت أن أشدّ شعرها وأدوس وجودها بقدميّ.

نظرت لزوجها الذي تلوّن وجهه أسفا وخجلا، وغاضبا من تجاهُلها المقصود لعزّتي، تثاقلتْ بمكرٍ وتركت الصالة واحتوتني الأريكة لقيعان الذل، كيفّ تريدني خدّامة للأثرياء، ألأنّي أشكو لها حالي ورغبتي الملحة للإيواء، أفعل لها ما تشاء لكن لا ترميني في الحضيض، لن تدرك أنّي ابنتها ولست عدوّتها، لكنّها سيّدة الرغبات النرجسية المتقنة للتهميش والنكران، لم أطق رؤيتها ومحادثتها لأسبوع، وإن رغبتُ بالخروج تطلب من السائق "التركمانيّ" أن يوصلني حيث أشاء ثمّ تسألني "شو بتشكيلوه!" ويدهشني ما يدور بينهما من حديث لا أعلم فحواه.

***

خيباتي

١

لم نسمع الشجر يصرخ تحت فؤوس الحطابين
بل سمعنا الحطابين يئنون وهم يقطعون الشجر
«وديع سعادة»

لفني التيه في عباب بحر ظلمات بانتظار بارقة أمل لأرسو على شاطئ الأمان، جلست أمّي قبالتي ناثرة شعرها وتخلخل تموجاته بأناملها، أذهلني لين حديثها لمّا عرضت عليّ بلا تردد فكرة الزواج من السائق "علي التركماني" أدركت مرارة ما تسعى إليه لتقنعني بشتى الأساليب للانزياح من حياتها، فقلت لها بأسى "كيف أنسى عشرين سنة بيننا" رنت إلي بنظرة حنو زائفة "وافقي، الجواز بحلّ مشاكلك، عندو بيت وتاكسي ملك" هربت من إصرارها والأفكار تطوّحني ودمعي يحتقن كمداً.

لم أجد منفذا من ضياعي إلا الزواج، ابتلعت الفكرة على مضض وجمّدت لوعتي على صباي، غامت ملامحه عن بصيرتي فلم أحفل لرمادية لحيته ولنظراته المنتشية بعصف بارد، أقنعت نفسي بمكان يأويني ونفقة قد تستر عوزي، ولاحظت شغفه بي وحاجته الملحّة لزوجة فتيّة تحقق له حلم إنجاب الولد، مما جعل التغافل عن فرق السنين ممكنا.

حدث ما أرادت أمّي وسعت إليه بأقصى جهد لإتمام صفقة الزواج من "علي التركماني" بلا حفل زفاف. ألبستني ملابس أنيقة ودعتنا للعشاء على نفقتها في مطعم فخم احتفاءً بالزواج. ماذا فعلت يا أمّي! تقلّبين العالم المحيط بك إلى نيران خفيّة لمصلحتك، فكلّ حياتي من اللامعقولات، تقبّلت الأمر وغضضت وعيي عن فرق السنين لأرى حسناته وابتلعت الصفقة لمقتضيات مصلحتي وآثرت احتياجاتي وتغافلت عن رغباتي. استبعدتُ فكرة الزواج بعد قصّة حبّ أو إعجاب،

وما ضير العالم إن اصطدتُ ثلاثة عصافير بحجر واحد، بيت ونفقة وزوج.

في غفلة من الزمن استكنت لأول مرّة لحضن رجل، لأغدو ربّة أسرة، وأمّلت التفاهم مع ابنتيه لتقاربنا في العمر ولخبرتي في تطويع الأمور، مع الأيام ارتبطت بصداقة حميمة مع ابنتيه وعلاقة عاديّة مع أمّه. كانت أخته المتزوجة تزورنا باستمرار وهي تصغره بعشر سنين، لكنّ جمالها صارخ وأنوثتها لاهبة، احترت لطبع زوجي الذي يبدو طيبا ومغلوبا على أمره، وإذ به مسلوب الإرادة أمام سطوة أخته، يزورها محمّلا بما تحتاجه لمعيشة أسرتها، ومغدقا بالملابس والمكياج، أقلقني الإنفاق بلا مبرر، أحيانا يتركنا بلا مصروف ولم يحرك ساكنا حين اضطررت مرّة لبيع خاتم زواجي لشراء احتياجات البيت.

بدت الهمسات التي تدور مع أخته مبهمة ومثيرة للتوجّس والتصاقهما بركن غرفة الجلوس منفّر، وإن اقتحمتُ جلستهما تهدأ، وأجد نفسي في حضرة جسد ينضحّ بالشبق، ترتدي أمامه ملابس فاضحة أخجل من ارتدائها لزوجي، عيناها تحكي رغبات جارفة وفي حديثها غنج الإيحاء، أدهشني تصرفها غير اللائق وتساءلت ما سرّ التواصل الوثيق بينهما، شكوتها لأخيها الأصغر وأفزعني ردّه "أنا بعرف وساختها"، التهبت نيراني وخلت نفسي عجوزا كهنة ترسم رموزا غاضبة على وجه منهك.

خلت بينهما علاقة حرام، فلعنتُ إبليس واستغفرتُ الله، رافضة صورة اللامعقولات، ألهبتُها بنظراتي ولمّحت بشكّي فتجاهلت تلميحاتي وتقرّبت مني بكلمات ودودة ونصحتْه بعدم التقصير بأمور بيته لتزيل شكوكي، وسلكت دربا آخر للسيطرة عليّ حين ضبطّها ترش بزاوية غرفتي مسحوقا أسود وتتمتم بكلمات لا أعيها، سألت ابنته عمّا تفعل عمتها، أخبرتني بأنّ هذا سحر تتقنه لأصبح تحت إمرتها، وقد سحرت لأمّها حتى جننتها.

حبكت خطّة محكمة للمراقبة، وادّعيت اضطراري للخروج لساعتين وعدت

خلسة بعد ربع ساعة لأضبطهما في سريري في وضع خطيئة، وقد غلبهما شيطان الشهوة وغرقا في سيل قبلات وكانت تتلوى بحضنه كأفعى رقطاء، فهجمت عليه وضربته "يا مجنون شو بتعمل" فأطلق احتجاجا "شو فيها خسارتها بجوزها الأهبل" وأذهلني زنا المحارم وصعقني كلام انزلق كحمم بركانيّة فلم أستطع ضبط سباب لساني وطردتهما من غرفتي، حكيت لأمّه فلم تتأثر "منعرف وقاحتها" صرخت "اعملي شي لبنتك" ردّت "هي أخته من أمّه وابني رجال ما يعيبوا شي" فزجرتها "الزنا حرام للرجّال والمرا".

انزويت مرتجفة في غرفتي لهول ما رأيت، وسألتُ ابنته عن سبب طلاق أمّها وأفزعتني إجابتها "لنفس السبب" ولأنّ أمّها لم ترضَ الحرام، خلعته، وفعلتُ فعلها فطلبت الطلاق وشجّعتْه أخته الساقطة لقناعتها أنّه يستحق زوجة أفضل منّي وستزوّجه جارتها المطلقة، وافق بعد تنازلي عن متأخر الصداق، وبكت ابنتاه لفراقي، ولم تخفِ حماتي إعجابها بجمالي ومهارتي في إدارة المنزل فحاولت أن تبقيني لانتهاء العدة لأنّها ترغب بي زوجة ثانية لأصغر أبنائها لمكايدة كنتها التي تعاندها، فقلت لها بحنق: "بالعربي أنتو عيله واقعة".

رفضت فكرة العيش مع عائلة فكرها جانح بلا خلق ولا دين لأنّي أسعى لبيت في الجنة لا لبيت في قلوبهم العاصية ولم أنس حقيقتي كمسلمة عليها رفض المنكر، وخرجت بتأوّهات جارحة لأغفو في مرافئ تائهة، وحملت لقب مطلقة في زواج لم تتجاوز مدته سنة. وتصدّرت ذاكرتي مقولة عيسى عليه السلام في العشاء الأخير حين قبّل الصليب ورفع الخبز وكسر وشكر "هذا جسدي المسحوق لأجلكم" مؤكّدا معاناته لنشر الدعوة والدنيا كرحىً طحونة وهو بين حجريها، هل أكون مثله ومعاناتي بين حجري رحىً وهناك من يحرك قطب الرحى ليسحقني، وهل يموت قلبي ويصبح كحجر لأنّه لم يرتو بالحبّ.

***

٢

التفاؤل هو: أن لا نثق بالحياة كثيرا
«جلال قفيشة»

أفضى بي الدُوار إلى متاهات صاخبة، وجرّتني ساقاي بلا هدف في دروب وعرة، ناورتني حيرة نفس مخضّبة بالشجن، ومفترق الطرق يسألني، إلى أين؟ أتقبلني عمتي وغضبها لا ينطفئ وأمّي ترفض وجودي؟ أردت إعطاء نفسي فرصة لأخذ قرار مناسب، توجّهت لفندق شعبي ودعوت الله أن تلفني سكينة تواري قهري، واجهتني مرآة غرفتي لتعنّف ماريا المأزومة في صفحتها "ماذا فعلت بنفسك وإلى أين في خضم هذا التيه! لاحت عمتي في انعكاس ومضات المرآة بابتسامة مسربلة بحزن لامس خلجات روحي الكسيرة، وهدهدني التعب لنفق نوم عميق.

في الصباح عدت للبحث عن عمل، وأوشكت قروشي على النفاد، عرجت لبيت صديقتي التي دعتني لقضاء سحابة النهار، وحمّلتني طعاما لليوم التالي، وجرّنا حديث الهموم لسهرة بكائيّة، عدت للفندق ليلا، وخفت حين رأيت سكارى يترنّحون على إيقاع فلكلوري، غذّيت الخطى للفندق وأغلقت بابي وتمنّيت إغلاق الدنيا على ذاتي، بعد ساعة سمعت طرقا خفيفا على الباب.

تجاهلت الدقّ فازداد، إذ بصوت موظف الاستعلام مراوغا "معي إشي ضروري إلك" فتحت، دخل وأغلق الباب ليباغتني بحركة ارتعدت لها، وطلب الفاحشة مقابل أجر الغرفة ولم ينتظر ردّا، هجم بشهوة فائرة فانتشلت نفسي من ذهولي وحدّقت به، كأنه لم يبق من مصائب الدنيا إلا هذا، وتملّكتني شراسة، ضربت رأسه بقسوة بالجدار ففرّ كجرذ ودويّ قهقهاته كالزئير يخترق أذني، ركنت

لأستعيد انتظام وجيب قلبي وعنّفتني ذاتي أيّ خطيئة ارتكبتُها لتتوالى محني ويدينني العالم وتسدّ السبل في وجهي.

هزمتني موجة بكاء وهزّني زمهرير اغتراب بارتعاشاته لتسلبني غفوة ليلة نكدة، في الصباح ذهبت لعمتي لأشكو حالي فردّت بجلافة "بيقهرني اللي بصير معك وأخبارك بتوصلني لكن ما برجعك إلا لتنفذي الشرط" دمّرتني قسوتها وخرجت أجرّ أذيال انكساري لأنّ رفض عمتي المتوقع جعل مرارة الدنيا تزيد في حلقي، لكنّي لن ارتدّ عن ديني مهما حدث.

سرت في الشوارع لأصبح أنا والقمامة والقطط متشابهين ليطبّق قانون العدم ووحدة الحال علينا، وألهبتني ساديّة شمس تموز بسياطها واخترقت مساماتي لتعبث بخلايا مزاجي، وكأنّ ما يحدث لي عقاب رومانيّ لمحكوم بالإعدام على جريمة بشعة فتُربط حجر الرحى في عنقه ويُلقى بالبحر فتسحبه الرحى للقاع فلا يمكنه الفرار من نهش الأسماك، ودعوت الله تفريج كربي وغلبتني حيرة وقرع سؤال رأسي "أيّ طريق اتجه"؟ أمّي لن ترأف بي وسترميني في طرق أخرى وعرة، الفنادق الرخيصة لا أمان فيها بعد أن تعرّضت للتحرش الجنسي، تحسستُ خاتما هدية عمتي ودمعت عيناي لاضطراري لأن أبيعه لأرمم حطامي.

تذكّرت حيّا يُعرف بتأجير غرفه بأجر زهيد، فمشى بي الدرب لجبل التاج وارتقيته لهثة لهثة لتقودني اللهفة إلى مأوىً يحتويني، ودارت عجلة البحث المضنية، فدلّني أحدهم على غرفة فوق سطح عمارة متهالكة فاستأجرتها، سألتْ صاحبة المنزل عن متاعي، رفعت حقيبتي عاليا، فأدركتْ أنّي لا أملك من حطام الدنيا إلا هذه وبيّنت لها أنّ ما أريده أرض افترش بلاطها وباب يغلق عليّ، لاحظتُ قلق عينيها فطمأنتُها بقدرتي على تحمّل المسؤولية ولن أضيع حقّها فرغم أنّ العوز مسح عتباته بي إلا أني لا أستولي على حق أحد وسيصلها الأجر أوّل الشهر، إن عجزت

أترك المكان، فاعتذرت بكلمات مفحمة وبررت موقفها بسبب حاجتها القصوى لستر عوَزها قائلة "الله يرزقنا".

أكرمتني وأحضرت لي فرشة من أسمال بيتها كي لا أنام على البلاط القاسي الذي هو أحنّ عليّ من أهلي، وأدركتُ أنّه لا يشعر بالفقير إلا فقير مثله وطمأنتُها بأنّي سأبحث غدا عن عمل لأسدّ حاجتي، دخلت غرفة مجاورة للخواء رائحتها عطنة كأدخنة بخور معتّقة ألوان جدرانها داكنة وصفعني غبارها بلفحة اغتراب وتضيء عتمتها نافذة تسرق نثار ضوء القمر من شقوقها، نظرت للسقف القصديري وبدت ثقوبه الصدئة كعيون تتلصص على تيهي وكأني بيضة في حنك الحوت.

ناولتني شمعة واعتذرت لعدم وجود كهرباء، نصبتها وسط الغرفة لتمحو كسف العتمة المتساقطة في الأرجاء، وتشذّر الضوء الباهت لبقع متباعدة، فلذت بالركن وسرحت بي مخيلتي لتصدح منها كوابيس تعوي كذئاب شرهة تلاحق طريدتها، واخترقت أصوات صمت جدراني وتحوّل الليل وحشا يقتات قلبي ويلتهم بقايا نور ذاتي، فتساءلت: هل الغرفة قبر أم روحي أضفت عليها كآبتي؟ شعرت بدفء أثيريّ وحدّقت بالسقف وإذ بعناكب تتدلّى من الثقوب تستعرض شقوتها، وفي الركن سحليتان تتهامسان وكأنّهما تتآمران على تيهي، فارتعبت وأسقطت سواد دمع معاناتي وكأنّي مكلّفة بكلّ الانكسارات.

غارت يقظتي في لجّة ذكريات قاسية وعاودتني سطوة النعاس مداعبة جفنيّ في ليلة ظلمتها مهابة، وطاردتني من أحلامي خيول مسرّجة بالوهم وركضتُ لاهثة متصبّبة عرقاً وشوقاً لومضة أمان وقطرة ماء في سراب عمري وتعثّرت بين سقوط وركضٍ، فصحوت وأذناي تصيخان السمع لأدقّ حركة لأستشف مصدر الخوف الذي اقتحم خفايا وحدتي، فسمعت دبيب حركة على السطح، جفلت وسرت

رعدة بأوصالي، هببت واقفة من وطء اللحظة الملتهبة لأسترق النظر من شقّ الباب وطمأنت نفسي لعلها قطة تبحث عن لقمة سائغة ومرقد آمن أو هواجسي هي التي أوقعتني تحت وطأتها.

استيقظت باكرا لأبحث عن باب رزق، وبعت السلسلة الذهبية هدية عمي وما يذكّرني به وآخر ممتلكاتي، لأنّه وجب عليّ التآلف الطوعي مع اغترابي، فلم أوفق لإيجاد عمل مناسب وتجوّلت في السوق لأشتري حاجياتي الضرورية التي تعينني على استمرار الحياة، عدت لأجهز طعامي وأرتب أشيائي، تذكّرت لوهلة عابرة شراء قداحة وبدأ الجوع يهاجم معدتي واحترت ولم تعد لدي قدرة على النزول أربعة طوابق لأجل قبس نار.

نظرت حولي فوجدت غرفة صغيرة في أقصى السطح لم أنتبه بالأمس لها، طرقت الباب ففتح شاب يحمل كتابا، حدّق باستهجان فلم أعبأ له وطلبت قدّاحة لأشعل موقدي وأطفئ وقدة جوعي، وعدت أدراجي وأعددت طعامي، ثمّ ملأت طبقا له لأشكر فضل قداحته، انبرى ممازحا "عايزة ملح أو رز" ناولته الطبق "اشتهيتلكم المقلوبة" اعتذر واستدرك "لكنه ما بكفي ثلاث طلاب" فرددت "وما عندي إلا صحن" فضحكنا وعدت أدراجي مع أول ضحكة أزهرت نفسي منذ مدة وتوثّقت بيننا ألفة الجوار.

حرصت على العمل للاكتفاء الذاتي، فوجدت عملا في مركز تجميل وعلمت صاحبته بحداثتي في الإسلام وبظروفي فتعاطفت معي وعلّمتني التجميل وأتقنته، عاملتني كأمّ رؤوم، ورأيتها المسلمة الملتزمة، دار الهمس حولي ولحقتني عيون الفضول، وترصّدوا تحرّكاتي وماجت نفسي بخواطر متضاربة بلا هوادة، كنت واضحة وسلسة التعامل مع أهل الحيّ، عاملوني بودّ وأحبّوني، عددت حبّ الناس فضل من ربّ العالمين، لأنّه ربّ أخٍ لك لم تلده أمّك. صرت محطّ اهتمام أهل الحيّ

ودعتني نسوة المركز الإسلامي لحضور ندوات دينيّة، وأبدين تعاطفا معي، انهالت المساعدات فآخذ ما أراه ضروريّ حفظا لعزّة نفسي، وبعد انتهاء شهور العدة ارتأين البحث لماريا عن زوج مناسب يصونها، وعصفت ذاكرتي بنزق أحداث تَفلق قلوبا صلدة.

* * *

٣

اغرورقت عيناي بالدمع وأنا أفكّر بأنّ قليلا من الدفء وقليلا من الخبز
وسقفا فوق رأسي وكلمة لطيفة تمحي الكراهية
«نيكوس كازانتزكيس»

اتصلت بصديقتي هبة وأخبرتها عن خيباتي وإذ بها تُفاجئني بزواجها وأنّها أمّ لطفل، أخبرتني أن قصة حبها السابقة قد فشلت ولم تسمح ظروفها بالزواج، لكنّ الحبيب تزوج منذ أسبوع ولأنّها ما زالت تقدّر ما كان بينهما، كلفتني بإرسال رسالة تهنئة من هاتفي ففعلت، اتصل بي مستوضحا، خبّرته أنّها على لسان هبة التي تتمنّى سعادته، شكرني، وأخبرني أنّه يعرف عنّي الكثير وطلب مني التعرّف على صديقه بقصد الزواج.

كان الصديق هو سامر الوهابي الذي يعمل فنّي ألمينيوم، وله تجربة زواج قصيرة مع ابنة، قابلت سامر وكانت وسامته كفيلة بتكوين رشقة حبّ وقبول، وافقت على الزواج مبدئيا، بعد أن زرت بيت أهله في بناء تقادم عليه الزمن، شاهدت شقّة التسوية عش الزوجية وتقبّلت فقره على مضض، أشار للجزء الخاص به في غرفة أخوته، لاحظت ملصقات جدارية لأبطال كرة القدم، جاملته مُبدية إعجابي بنجوم الكرة مثل "مردونا"، سرّ لاتفاق ميولنا، انبرت أمّه قائلة "صار عنّا اتنين مهوسين كورة" وسألته عن سبب فشل زواجه الأول، فعلل أنّه لم يستطع تحمّل المسؤولية لصغر سنّه فتركتْه زوجته لتتزوج بآخر، أصبحنا متعادلين بالفشل والحظ يبتسم لنا باستحياء.

عقدنا القران وطلب القاضي وليّا ليستوفي شروط العقد، فأعلمته بظرفي فكان القاضي وليّي ودفعتُ رسوم العقد، ونقدني دينارا واحدا مهرا والمؤجل ألفي

دينار. بذل أهل الحي والأصدقاء جهدا لإسعادي وإقامة حفل زفاف بأبسط الترتيبات المتاحة وكأنّهم يصنعون فرحا ولا يحضرونه، استأجر صديقه "كوشة" بأجر زهيد وضعها على سطح البناية التي أسكن فيها، وقدّم أهل الحيّ الكراسي والزينة الملوّنة، وتكفّل شباب الحيّ بموسيقى الزفّة، وقدمت حماتي العصير وحلوى رخيصة، وأهدتني صاحبة الصالون تسريحة الشعر والماكياج وفستان الزفاف الذي وسّعته لأنّ البدانة عبثت بتناسق قوامي لتصنع نتوءات شحميّة لكنّها لم تخفِ معالم جمالي الدافق نضارة، وبروز صدري الهائل الاكتناز، تمايلتُ بالشموع وأغلقتُ ذهني عن ترهات زمن لا يراني ضمن كائناته وألقيت أمنياتي الترفيهيّة في سلة القمامة.

كانت ليلة الدُخلة فوق فراش رقيق ألقته حماتي أرضا بلا وسائد ولا غطاء فتوسّد ذراعي ودثّرته بعباءتي، احتضنني بدفئه وأشعلته بأنوثتي واكتشفت أنّي مفعمة بالشهوة، أتزيّن لأنّه يتقن الحبّ ويشبع رغبات مكبوتة وشعرت باستقرار نفسي ومكاني، وجالت بي أحلام مغايرة لأيام ما زالت حلاوتها في حنايا قلبي، استطعت إدارة دفة حياتي رغم قلة ذات اليد وكأنّي كهلة بخبرات العمر، كنت سيدة منزل متميّزة، طيّعة لما يرضيه، لوّنت حياتنا بنثار سعادة، تنشّط سامر في عمله وفرش البيت من المستعمل وتبرع لنا المعارف بخزانة عتيقة أو سرير مقعر أو طبق مشعور أو قدر مبتور اليد وكؤوس شاي، وقدّمت صديقتي مقاعد آيلة للتبعثر، وتنازل أحدهم عن سجادة منخولة بالثقوب، وبذلت جهدا خارقا لتوفير ثمن سرير مستعمل واسع ومتين كي يحتمل وزني الثقيل وحرائق حبنا فأضلعي تكسّرت من السرير المقعّر، وسعدت بالاستقرار الذي بات أدنى قاب قوسين مني، وهيّأت ما أستطيع لتوفير الطمأنينة لحياتنا.

رضيت معه وفهمت طبعه وأحببته، لكنّه لم يدرك مدى طموحي. زارتني أمّي

لتتأكد أني لن أعود إليها بعد ظهور أعراض الحمل عليّ ونظرتْ لتكوّر بطني وبحثتُ عن ملمح سعادة لجدّة وتمنّيت أن تحتضنني مباركة لكنّها بدت كأنّ الأمر لا يعنيها، ورمتني بنظرة فوقية وأغمضت كي لا أرى نظرة حقد تصبّه بأوصالي المرهقة، لكنّها نصحتني أن لا أطرق بابها إن احتجت شيئا لأجل العبء القادم من بطني، أجبتها "اطمّني لو جار الزمن وحملته وتسوّلت عالأرصفة ما بدق بابك"، غادرتْ واستأتُ منها لتظلّ علاقتي بين مدّ وجزر، وأحيانا أهددها بترك بيتي إن لم أجد ضروریاتي فتساعدني بالنزر اليسير.

زارتني عمتي وباركت زواجي على مضض، فقلت لها: "تجوزت مسلم زيّك" فردّت مستاءة: "لكنّي بقيت على ديني". ظلّت علاقتي بها بين كرّ وفرّ، تقاطعني ثمّ يغلبها الحنين فتبحث عني لتصل إليّ، وينتابها غضب فتوصد الأبواب بوجهي، وأترك الباب مواربا حتى لا أتوه منها أو تتخلى عني، أعطتني نقودا وتبرّعت بخزانة ملابس ودّعتني وظلّ المال عثرتي المستديمة. أحضر سامر تلفازا مستعملا ومستقبل محطات، فرحت لإنجازه وشغفنا بمتابعة البرامج مع التسالي والفاكهة الرخيصة في سهرة يتخللها أحاديث أسريّة حميمة.

حلمت بمستقبل مرفه وبناء بيت مستقل مثل بيت عمتي، لأنّي لم آلف حياة الأحياء الشعبية وعرضت عليه أفكارا لمشاريع صغيرة كإنشاء ورشة ألمينيوم، وأبديت استعدادي للعمل لتكوين حياة أفضل ولضيقي من الفراغ، أحيانا أساعد حماتي بأعمال المنزل لكثرة أولادها ومسؤولياتها وقد يقع خلاف بيننا لاختلاف وجهات النظر وللتنافر الأزليّ بين الحماة والكنّة. كان سامر ودودا مطواعا لكنّه فاقد للطموح لا يبادر للسعي لحياة أفضل، لكنّ الفقر علّق براثنه بالتدريج على أرديته وأرتجف حين يستفزني الفقر آملة معانقة راحة خالدة وأيّدت قول علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: "لو كان الفقر رجلا لقتلته".

٤

الناس كالنوافذ ذات الزجاج الملون فهي تُرى أقوى النهار وعندما يحل الظلام
فإن جمالها الحقيقي يظهر إذا كان هنالك ضوء من الداخل
«اليزابث روس»

لم أرغب صحبة نسوة الحيّ لاختلاف الرؤى الاجتماعية، فالتزمت بيتي لأرقب من نافذتي تحركات النسوة وتشاكس الأولاد والظلال المتطاولة على الجدران لكثرة الحركة بالأزقة، وأنتظر الغروب لعل حمرة الأفق الشجيّة ترنو من شقوق موارية بين البيوت لتزيل قتام نفسي، في مخيم الوحدات أشباه بيوت مرقّمة برموز وهميّة، بعض اللاجئين يحمل رقما ليس وطنيا ورقم بطاقة مؤن تصمه بالمذلّة، أرقام موثّقة في هيئة الأمم دلالة عن وطن سليب، هنا همّش الأغنياء أحياء الفقراء ورسموا نماذجها.

الأزقة تضيق وتمتدّ وموّزعة بغير انتظام، الضوء يندلع من المصابيح ليرسم الظلال فتبدو ساحة المخيم كمسرح خيال ظلّ عابث، وتتسارع الأقدام لتؤدي أدوار سريّة وتتراشق الألسن كلمات التراضي والتعارك ولغو السكارى والحشاشين من أدنى المخيم لأقصاه، ولّما تفور الخناقات تلعلع لعنات القدح البذيئة وهمهمات يشوبها غضب جارف، هنا الوجوه كادحة والأقدام متعثّرة وإيقاع الجوع وصمة خجلة من قول عمر حين نهر بطنه "قرقر أو لا تقرقر والله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين".

حارة تعجّ برؤى مستفزّة وقيادات مسيطرة، هذا "عويضة الأهبل" يرشقه أولاد الزقاق بالحجارة ليجوب الأزقة بعشوائية حركاته المثيرة للعبث، يضرب جبهته بأعمدة النور لتنهار قواه، أو يجد ظلّه متطاولا على الجدران فيسبّه ويشاكسه الأولاد، يغتاظ منهم فيخلع سرواله فيضحكون لعريه الفاضح ويرمونه بأقذع

السباب لوأد كرامته وقمع بقايا إنسانيته، ويسأله أحدهم عن أهله فيردّ "لا أعرف" ليعيد سؤله "ومن تعرف" فيرد بيقين "الله".

إنّ حياة قاطني الحواري الشعبية صراع لأجل البقاء، إذ يؤذي عبق الفقر صدورهم ليفوح بأسىً، وتكثر القصص المثيرة للكثرة الإنسانية في حيّز ضيّق لتقارب البيوت المسكونة بالأضداد، هنا الأسرار جهريّة وكأنّ المرء يساكن جيرانه، مشاكلهم حاضرة خلف الجدران لتصمّ الآذان جلجلة ضحك النساء وغنجهم اللاهب في العلاقات الزوجيّة وتنهيدات الحبّ وأنين المرضى.

يتبدّى عراك النسوة كأهزوجة نكد يوميّ ويزدحم بالسبّ الإباحيّ في الجدّ والمزاح، ويحلو السمر بين الجيران في أفنية تعبق بروائح عرق النهار ومخلّفات القمامة وأدخنة السيارات، وترسم فضاء الليل بأدخنة الأراكيل حيث يتجمّع الفتية ليتمازحوا بثرثرة رقيعة على إيقاع كركرتها، ليغازلوا مراهقات يتقصدن التمايس بأردية حياء لسماع ما يستهوي ميعة الصبا، ونظراتهم تلاحق خطوات خفّاقة لفتيات عائدات من مناوبة الخدمة لمشفى البشير، وبائع الفول يتجوّل بأبخرة زكيّة بالأزقة بمغناة تعلن عن فوله وتساعده زوجه العجوز لدفع عربته لتلبية طلبات الزبائن.

لكنّ جارتي الثرثارة لا تُخفي عنها شاردة من حكايا الحيّ، فاقتحمت وجودي لتحذّرني "أوعي تحكي مع الدنجوان الهامل الواطي، أنت حلوة وإيدو طايلة" ووصفت سوء خلقه وملاحقته للنساء وتقافزه فوق أسطح المنازل للقاء عشيقاته، فصرت إن اخترقتني نظراته أسدد له نظرة سخط لثقل ظلّه، ولنفوري من ملامح خلتها محددة بريشة شيطان، وحكت الجارة أدقّ تفاصيل حكاية "مليحة مع علي الحلو" وهي امرأة جميلة وزوجة لرجل أبله وحشّاش، لكنّها أُغرمت بالحلو لوسامته المذهلة وفاق حبّه لها حبّ قيس لليلاه، وانتشر دخان حبّهما.

لملم والداه بقايا سمعته وزوّجوه من قريبته التي وصلها خبر قصة حبّه، ولم تهدأ نيران مليحة بل واظبت على المرور أمام بيته، لعلها تطفئ لهيب شوقها بنظرة حنين هاربة وينتشي بعبق عطرها، يطربه إيقاع حذائها فتلتهب غيرة زوجه المتسلّطة التي لم تترك وسيلة لوأد عشقه حتى لجأتْ لأساطين السحر والشعوذة وأصبح زوجها ملك يمينها ويرتجف كأرنب لسطوة شكوكها، لكنّها تريد وأد عشق أوغل قلبه، وظلّت نيران الغيرة تشتعل كلّما مرت أمام منزلها، ولولا غضبها لانطلق خلفها غير آبه بها، فتسبّها الزوجة وترميها بالحجارة أو تسلّط أولاد الحيّ للسخرية منها بطريقة مخزية وأحيانا تضربها لإبعادها عنه.

في ليلة تأخّر زوجي في عمله فجلست عند النافذة أنتظره، وإذ بالدنجوان عدنان يمرّ بأناقته المميزة وطوله الفارع وظلّه الثقيل، وانزوى مسترا بالظلمة وأقعى كذئب شرس على مرمى من ناظري، ومسَّد شعره متأففا بعصبية كأنّه ينتظر شخصا ما، فانتقاه فضولي وتابعْته بنظراتي، وبعد انقطاع وقع الأقدام عن الدرب مرّت مليحة تتمايل بغواية وذؤابة من شعرها تناور جبهتها وجديلتها تدغدغ نهد عتيد، أيقنتُ أنّه يتربصها فاعترتني قشعريرة رهبة، حاولتْ تجاهل وجوده فأخفقتْ، واعتدل واقفا لها بالمرصاد، ارتبكت، ولكنّها واجهته بصلفٍ، فضحك بوحشيّة مفجعةٍ، لامس شعرها فأشاحت عنه، أطلق قهقة مستفزّة ومسّد شاربه، نظرت إليه بغرابة وعقدت ما بين حاجبيها "شو بدك"! ابتسم بمكر "في عليكي حساب" عقدت المفاجأة لسانها وحملقتْ بنظرات زائغة وابتلعتها لحظة رعب.

حدّقت به وتوسّلته بصوت خفيض واهن "استرني الله يسترك" ولملمت شتات قوتها وبدى صوتها غير مهزوز وكأنّها مسيطرة على الموقف "رح أبلغ الشرطة عنك" ردّ بوقاحة "ما بتتجرئي تفضحي حالك" حشرها بقوة في الزاوية،

فاستغاثت، مدّ يده لسروالها الداخلي ونزعه بسرعة وباعد ما بين الفخذين ودسّ محتوى علبة صغيرة وبصق بوجهها قائلا: "هاد فلفل حار خلّيه يولعك عشان تتربي" ورماها بأقذر السباب وطوى لاهثا كأنّه خارج لتوّه من معركة ضارية، اتسعت حدقتاي وتجمّدتُ بمكاني، واعترتها رعشة من قمة رأسها لأخمص قدميها.

اتّقت غزارة دمعها بكفيها لتلملم بقايا كرامة مسفوحة، وخدش زعيقُها السكونَ لتوجّعها وتأوّهها، وطفح منها أسىً محموم، فألهبت لعناتها دهاليز اللاشعور ودعت عليه بحرقة "الله ينتقم منك ويذلك" وأخذت تتقافز من مكان لآخر كأنّها دخلت مكمورا تتراقص فيه أرواح شريرة خفية أو كقط اشتعلت النيران بذيله، مرّت أم العزّ لتزيد من انكسارها وأغرقتها بُصاقا "تعلمي ما تطلعي باللي بإيد غيرك"، أفقتُ من ذهولي بعد انتهاء العرض العبثي، واختفى وقع أقدامها عن الأزقة، وصدّقت القول "من راقب الناس مات همّا وقرفا".

أصرّت جارتي معرفة سرّ صراخ مليحة تلك الليلة؛ ولأنّي الشاهدة الوحيدة على الحدث الذي وقع أمام نافذتي، فأخبرتها. لم تهدأ حتى عرفتْ تفاصيل ما قبل المؤامرة من أمّ العزّ التي انتشت بانتصارها، وعادت لتخبرني، وتبيّن أنّ ما حدث لمليحة كان مؤامرة قذرة بين "الدنجوان" وأمّ العزّ الأمّارة بالشرّ والعصية على الاستسلام؛ وأرادت خلع مليحة من الحيّ وكسر نفسها فالتقتْ أمّ العز بـ"الدنجوان"، وعرضت عليه الوسيلة، لكنه رفض مذعورا لفظاعة الفكرة قائلا: "ليه ما تعمليها أنت"! لكنّها ردّت ودمع التماسيح ينهمر بدهاء شيطاني "ما بكسر نفسها إلا إذا عملها رجّال" وأقنعتْه أنّه المطلوب لأقذر مهمّة، فرّ من وسوستها ثمّ عاد لتعطيه أداة الجريمة، وليتفقا على ثمن لم يُعرف كنهه. خفت من بيئة أفرزت سلوكيات معادية لرحمة الإنسانية، وتمنّيت أن لا يتربّى ولدي في هذا المكان، وتجنّبت مخالطتهم وكنت مراقبة لما يدور حولي.

٥

عندما يغلق باب يفتح باب آخر لكننا ننظر لفترة طويلة بندم للباب
المفتوح المغلق ولا نرى الباب المفتوح
«جراهام بل»

انتابت زوجي رغبة آسرة للسهر وبوادر تذمّر من العمل، أنام لأتركه متنقلا بين القنوات، إن قمت لأقضي حاجة على عادة الحوامل أجده ساهرا، أزجره لينام كي يصحو لعمله نشطا، فيصمّ أذنيه عن ندائي رافضا النصح، ويسلبه النوم حيويته فلا ينهض للعمل صباحا لانّه مقيد بأغلال الخمول، حسم صاحب العمل من أجره ثمّ استغنى عنه، أقلقتني مصاريف الولادة فقررت العمل، لم يعترض هروبا من المسؤولية، تفجّرت مشاحناتنا لأتفه الأسباب، وغدا لقاؤنا متباعدا، أرجع من عملي لتصفعني برودة البيت وهو يغطّ في نوم كهفي، فأثير الضجيج لأزعجه وتعصف بي عبثيّة الحال، متسائلة "ما المصير الذي ينتظرني والحال يزداد سوءا" تذكرت سبب انفصاله عن زوجته الأولى وأدركت أنّ المرأة لا تطلب الطلاق إلّا لظروف لا تُحتمل، انبثق فجر بلا ضياء وتأجج غضبه لمّا أيقظتة، وآلام المخاض تغزوني بقسوة، اغتسل من غفوته الدائمة واصطحبني لمشفى البشير.

تبين أنّي أحتاج لعمليّة قيصرية، غلبتني هواجس الموت والميلاد ولهفة الوليد القادم الذي قد يحمل قبس أمل؛ لإيقاظ أبيه من سباته إلى حيوية الحياة الطبيعية، وتسرّب الخوف لأعماقي المكروبة، اتصلت بعمتي فحضرت بلهفة حنونة "يارب تقومي بالسلامة" أعلمتها أنّي لا أملك كلفة الولادة، قالت بمودّة "هاتي اللي معك ورح أتكفّل بالباقي"، فرح بالولد وأراد تسميته باسم والده، رفضتْ، لأنّي نذرت تسميته "محمد" حبّا بالرسول عليه السلام، أقسم صادقا بوعد لاهث أنّه سيعمل بنشاط لتربية ابننا، أردت تصديق كلامه لأحلم بمستقبل وردي، ونهشتني الحيرة،

أهي وعود فرحته بالولد أم دبّت فيه الحياة.

***

تعرّفت على سلمى في عنبر الولادة وأخذتنا الثرثرة لنحكي معاناة الحمل والولادة، فأخبرتني أنّها تزوجت في عمر متأخر، وفرحتها لا توصف لإنجابها طفلة موجودة في الخداج ولم ترها بعد، وقد نقلت هنا لعدم توفر سرير في العناية الحثيثة، استغربت وجودها في عنبر المرضى وهي تعاني ارتفاعا حادّا في الضغط، فنصحتها تذكير الإدارة لوضعها بالعناية الحثيثة. ليلا دبّت حركة غير عادية وسمعت أنينا عاليا، رأيت الطبيب يعمل صدمات كهربائية لصدر سلمى لإعادة نبض القلب، لكنّه أعلن وفاتها، احتضنت ولدي فزعة وبكيت على الفقير الذي يدفع حياته ثمنا لإهمال الآخرين، ولم يفارقني وجه سلمى المتلهفة لرؤية وليدتها التي أصبحت بلا أمّ، وهذه بداية لمأساة جديدة، وحزنت على أبّ احتضن اللطيمة وباكيا زوجته التي قتلها الإهمال.

التقيت في المستشفى بزميلة الدراسة مريم التي تعمل ممرضة واهتمّت برعايتي، فرحت لها وتحسّرت على حالي لأنّي لو تابعت دراستي لعملت بمهنة تقيني شرّ الحاجة لأنّ التعليم ذخيرة تلبي حاجة المرأة المادية وتحفظ كرامتها. رأيت عند باب الغرفة المجاورة شرطيّة تحرس مريضة فسألتها عن سبب وجودها، امتنعت عن الإفصاح، لكنّ مريم سردت قصتها، إذ تبيّن أنّها مراهقة قادمة من بلد عربي لتتكسّب من البغاء، وقد وضعت مولودها الذي لا تعرف له أبا، فبلّغتْ إدارة المشفى عنها، لترحّل إلى وطنها ويُحمل وليدها لدار اللقطاء، نعتتها الممرضات بالفسق والفجور، لكنّي أشفقت عليها لأنّها لو وجدت زوجا ينفق ويشبع الغرائز ويتّقي الله فيها لما لوّثتها الرذيلة، لو أطاع الرجال أمر الله في حسن التبعّل في التعدد لأكرمتْ المرأة بالزواج كما كانت زمن المسلمين الأوائل. اليوم تفاقمت نواتج ظلم الرجل للمرأة لتطغى ظاهرة العنوسة والطلاق وانحراف النساء، حمدت الله رغم

مساوئ حياتي إلا أنّها ما زالت مقبولة.

أثناء خروجي من المشفى لمحت طيفا أعرفه واهتز قلبي لمرآه إنّه وائل التعمري، ناديته فالتفتَ إليّ وتسمّر بمكانه، ثم أقبل عليّ بكياسة مصطنعة تخفي لهيب شوق "هلا ماريا، سألت عنك كتير، خير، ليه هون" رددتُ "ولدت صبي" حدّق بكلينا "مبروك بيشبهك كتير، شو اسمه"؟ أجبت "محمد" ردّ بتلقائية "يعني تجوزتي مسلم" أجبت "بل أشهرت إسلامي" تهلل فرحا "مبارك إسلامك، بتستاهلي كل خير يا أم محمد" وأخبرني وائل أنّه في مرحلة دراسته الأخيرة في كلية الطب، ودّعته متمنية له النجاح، لكنّ نظراته أججت نفحة حبّ خلتها خمدت وانتشيت للذكرى الكامنة، وكأنّ قلبي مدينة تعجّ بأحبّة لا تخبو ذكراهم.

رجعت مع سامر ومحمد للبيت و"صرنا عيلة" أسعدني هذا الإحساس وانهالت حماتي وأعمامه الصغار على ابني بقبلات حميمة، أعمامه الذين لم أميّز أحدهم عن الآخر لتقارب أعمارهم. تزيّنت أيامي سعادة أغدقها وجود ابني فالأمومة تعطي للحياة معنىً بل هي لبّ الحياة ومنبع السعادة؛ لأنّ المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لكنّ المال يتبخر وجوده من حياتنا، مرّت شهور والروتين يعتصرني لا تغيير إلّا من مناغاة وضحكات ابني، وإن زرت حماتي تحكي بالتفصيل الممل أحداث حياتها التي لا تعنيني، فتأريخ الحكايا مهمة حواء التي لا تنتهي، لكنّها لمّحت لبعض سلوكيات سامر في صغره والتي لم تفارقه في شبابه كعدم قدرته على تحمّل المسؤولية وتلكؤه في العمل، وأدركت مغزى كلامها، تريد أن أتقبّل خواء سامر وكسله الذي يعمل يوما ويرتاح ثلاثة، بعد أن خوت جيوبه وازداد ولعه برياضة كرة القدم.

في موسم المونديال يتابع المباريات بإحساس مغيّب عمّن حوله متغافلا عن نداءاتي ويرتدى قميص المونديال ويلبّس ابني آخر ويحيط المنزل بأعلام الفريق الذي يؤيده فأغضب معلنة ليته يشتري فوط لابنه بدل الأعلام، وأهدده إن تغوّط

لأنظّفه بها. عندما يُهزم فريق يؤيّده يبكيه بدمع مكابر ويقبل التعازي، وتثور شياطينه على من يُسيء لفريقه أو يتوقع هزيمته، إن فاز فريق يؤيّده يصفق له بحرارة ويهجم عليّ بقبلاته معترفا أنّه يحبّ الكرة أكثر مني ومن ابنه، وإن غامت رؤاي لا يهتز له جفن؛ فأُغلقُ التلفاز أثناء المباراة وأخفي مبدل الأقنية أو أقطّع أسلاك اللاقط وأرميه مدّعية أنّ العاصفة طوّحته، فيصفعني، ولن أنسى يوم أوصلني لحضور زفاف صديقتي وعاد للبيت لمتابعة المباراة على أن يرجع لإعادتي للبيت فتناسى وعده، وأغلق هاتفه عن نداءاتي ولم أجد سبيلا للرّواح ليلا فأوصلني مسؤول القاعة، وهزمني سؤال، ما بال شعوبنا تُصاب بوباء اسمه الكرة ولا يفرحنا إلا فوز فريق وكأننا حققنا انتصارا لكل قضايانا.

وقعت الطامة الكبرى حين لم يستطع أحد الزبائن دفع أجر عمله فأعطاه "بلاي ستيشن" بدل الأجر، لمّا رأيتها أدركت أنّ الجوع سيتربع في بيتنا، وبينما كان منهمكا في لعبه أسقط ولدي لوح زجاج على قدمه وعلا بكاؤه وغزر نزفه، لم يحرك ساكنا إذ لا حياة لمن تنادي، غضبت وكسّرت جهازه ليترك إدمان اللعب، الحال يضيق أكثر ورفضه للعمل يزداد ودخله في تناقص ولم أترك وسيلة لتحويله عن الإدمان الكروي.

لم يفلح معه النصح أو التهديد بالطلاق، وزادت تعقيدات العوز الشديد، فترسل حماتي طبقا لا يسدّ جوعنا فاضطررت للعمل في محل ألبسة، وواجهتني مشكلة رعاية ابني أثناء غيابي وتعاطفت جدته واعتنت به ريثما أعود من عملي، لكنّها قصّرت لثقل مسؤولياتها، وضعته في حضانة لكنّ الراتب لم يكفِ، كنت أعمل لتأمين ثمن الطعام ويفتعل خناقة إن تأخرت بإعداد الغداء.

مرّت الأيام بطيئة رافضا مواصلة العمل ومتغاضيا عن مستلزمات حياتنا الملحّة وإن طالبته بالمصروف تجتاحه حدّة متصاعدة لتكفهرّ سحنته ويتحوّل حواره لأوامر "تصرّفي، دبري حالك" فيغوص فكري بمضامين الشرّ، ماذا

يقصد، هل أتسوّل أم أسرق أم أمارس البغاء؟ ويمزّقني بكاء ابني جوعا لأفقد قدرة السكوت لتغدو البعثرة الكلاميّة والشتائم منوالا يوميّا، أهاجمه بنبرة حادّة "حسّ على دمّك ابنك رح يموت من الجوع" فيعلو صوته ممزّقا حدود الصخب وكأنّ أشلاءه تتساقط "لا ترفعي صوتك، أنا الرجّال" فأتفوّه بثرثرات لا أدرك فحواها، وتترسخ القطيعة بعد المشاحنات ويصالحني لأجل مضاجعة، وأرفض تلبية طلبه قبل أن يملأ خواء معدتي ويؤمن حاجتي.

تمادى بأذاه ليضربني بالعصا ويدوس في بطني ولتنزف دمائي صارخا "أنا ما رح أرضى تحكمني عاهرة لميتها من الشارع" وتفجّر غيظي "هلق طلقني" وكأنّ عبارته هي القشة التي حرقت صبري واندفع قضيب نار من جوفي سِبابا، لأنّي لن أرضى الضرب والإهانة والمعايرة.

تركت بيتي وذهبت لعمتي فثارت لما حلّ بي، توجه إليه زوجها وولديها وضربوه ضربا مبرحا، أدرك أنّ لي أهلا يدافعون عني، تدخلت الشرطة ثمّ القضاء ليقع الطلاق بسبب الشقاق والنزاع، خرجت من حياته أجرجر خيبة زمن سابق وعمر لاحق، حرّقني فراق ابني وتنازلت عنه لأهله؛ لأنّ عمتي رفضت الإنفاق عليه، وتقبّلت وجودي المرتحل زمنا، وحفر الفقد جداول حسرة وألم بذاتي، لاحقني سامر هاتفيا ليسكب مفرداته بأقذر الصفات لأنّي هزمته وهزمت نفسي، فغيّرت رقمي كي لا أسمع سبابه.

لزمتني وحدة توحّد مع ذاتي، وانطفأ إقبالي على الحياة وتلبّسني صهيل روحي وحمحمة بكاء مكلوم، فلم أجد مخرجا إلا الدعاء لأخف عذاب دواخلي، وطبخت لعمتي لتتراكم الكليوات على متني، لكنّها خافت عليّ من الاكتئاب فأعطتني مالا لأشتري ما أرغب من ثياب أو أزور صديقاتي لكنّي اشتريت ثيابا وحلوى لابني، فاعترضت لتذكّرني أنّي عبء على راتبها.

***

٦

معنى الصداقة هو أن أراك جديرًا بالائتمان على جزء من كرامتي
«أحمد خالد توفيق»

لم تفارقني صورة ولدي وضحكاته ولفتاته، وحين يلهبني الحنين أتسلل للمخيم وأرقبه من بعيد يمشي ويتعثر فيهوي قلبي، أحيانا أدق بابهم في غفلة عن أبيه لأضمّه وأوسعه قبلات حميمة وأجالسه فترة وجيزة، وجدّته تراقبني بلا اعتراض ودمع عينيها يحكي شجن أمومة متعثّرة، ثمّ أنسحبُ باكية من أزقتهم ونظراتي تودّع فلذتي الذي ألزمني ضنك العيش الاختفاء في زوايا الأسى.

هزّني سؤال، كيف استطاعت أمّي التخلّي عنّي وأنا طفلة بائسة رغم ثرائها وتفرّدها بقرارها؟ وألهبني حنين لابني فذهبت إليهم واحتضنته بشوق ولم أجد أحدا في البيت فهربت وسرت على غير هدىً، ولم أنتبه أنّ أحدا يتتبع خطوي، وإذ بشرطي يعتقلني ويجرني إلى سجن الجويدة بتهمة اختطاف ولدي وبتّ ليلتها في السجن واستعادوه وحمدت الله أنّي سجنت لأجل ولدي ورأيتها تهمة مشرّفة قد أخبره بها حين يكبر ويعلم أني عملت المستحيل ليكون معي. لم أعترض على أمر الله وراجعتُ عثراتي ورأيت أنّ الحياة لابدّ أن تستمر شئت أم أبيت فعملت بائعة بمحل للألبسة لأكفي حاجتي، التقيتُ صدفة صديقتي نجوى التقيّة النقيّة، فالصداقة الحقّة تلامس الروح نحتاجها لتخفيف المعاناة، تربيتها راقية وحديثها يحاكي شجن خفيّ، لم نلتق منذ زمن لانشغالي بعثراتي ولانشغالها بدراسة الجامعة وسعيدة لاختيارها التعليم كسلاح بوجه عقبات الزمن.

حكيت لها قصتي وبكيتُ خوفا على ولدي من قسوة زوجة أبيه، ولأنّي عانيتُ قسوة أمي فكيف سيكون لؤم زوجة أبيه، طمأنتني؛ لأنّ ليس كلّ أمّ طيبة وليست

كلّ زوجة أبّ قاسية، هناك نساء أمومتهنّ أحنّ من الأمّ الحقيقيّة. سردت نجوى قصة لرجل رغب إخراج عقرب من حفرة كي لا تموت، كلّما حاول إخراجها تلسعه، لمّا سئل عن سبب إصراره على تخليصها وهي تلسعه أجاب لأنّه لا يقدر إلا أن يكون طيبا وطبعه الخير والعقرب لن تكون إلا لسّاعة وطبعها الشرّ، أدركت أن أمّي تهوى اللسع وزوجة أبيه طيبة لن تقسو عليه وهو يحبّها، والطبع غلّاب.

لبّيتُ دعوة نجوى للتعرف على أمّها التي حكت لي عن فيض حنانها، حين قابلتها أجمتني المفاجأة وتعانقنا بلهفة شوق ونجوى ذاهلة من حميمية اللقاء؛ لأنّ أمّها معلمة اللغة العربية التي أحبّها وأتمنى لقاءها، فاجأتني نجوى حين أخبرتني أنّ السيدة رائدة هي زوجة أبيها الأولى التي ربّتها بعد وفاة أمها وأبيها في حادث، غبطتُها لمثاليّة وأصالة السيدة رائدة وتمنّيتها أمّا لي تحميني من مشقة الحياة، وسردت عليها قصتي، قالت مواسية "وجّعتيني، أمانة لو احتجت شي اطلبيه ما رح أقصر" وفت بوعدها وساعدتني كثيرا وخففت معاناتي، لأنّها من الناس الذين نشكو لهم فيضيئون لنا شعلة أمل وينثرون زخّات حبّ في صحراء حياتنا ونتمنّى لو عشنا عمرنا معهم، وأحيانا نلتقي بمن يتركون بصمة عذاب في حياتنا ونتمنّى لو لم نعرفهم.

كانت صداقتي لنجوى نقيّة لا تؤطرها المصالح، وتعبّر عن محبّتها لي بقول "أحبّك في الله" وتدعو لي أن يحقق الله أمنياتي لأنّها تراني أستحق كلّ خير، ظلّ اشتياقي لها عظيم وأبحث عنها في دروب الحياة، أخبرتني أنّها تزوجت رجلا صالحا، هنأتها وكللتُها بأجمل الأماني، اتصلت بي لتطمئن عن أحوالي وحدّثتني عن كابوس يتكرر في منامها إذ ترى يدّ جنينها تنبثق من يمين بطنها، فأنصحها بالاستعاذة من الشيطان وتناسي الأوهام.

انشغلت عنها بمشاكلي التي لا تنتهي ثمّ اتصلت لأطمئن عليها، فأخبرتني أنّها ولدت طفلة وسعادتها بها عظيمة، في يوم رنّ هاتفي ورأيت اسمها، فتحت لأردّ لكنّي لم أسمع إلا نواحا وجيعا، ذهبت إليها لاستطلع الأمر فوجدتها بملامح كئيبة وغارقة بالسواد، وازدادت نواحا "ابنتي أخرجت يدها من بطني وخطفتها السيارة" وغابت في نوبة بكاء لقسوة الفجيعة، سردت أمّها كيفية الحادث، إذ كانت تحمل ابنتها في "كوت البيبي" مرّت بها سيارة مسرعة فضربت البنت عاليا وسقطت ميتة، فكادت تفقد عقلها ونُزِعت الطفلة عنوة من بين يديها رافضة دفنها.

أيّ ريح مشؤومة حملتني لتختلط أموري ويُشهر المدى سهاما مشحونة بالأسى، حاولتُ تخفيف الابتلاء بكلمات تصبير، ظلّت تغيب وتصحو ونواحها وجيع وانتقلت نيرانها لصدري، كيف أهدأ وابني في أزقة المخيم بلا رقيب؟ هزّتني أخيلة مفزعة لترسم صور أحداث مؤلمة قد يتعرض لها، خلته يمشي للشارع فتقتله سيارة فأسأل الله اللطف، تركتها وتسللت للمخيّم مدفوعة بقلق جامح واقتحمتُ بيتهم لأجده وحيدا في سرير صدئ، وبكاؤه يصدح الأجواء وتنتابه أزمة سعال حادّة وملابسه لا تقيه البرد القارص كمشرّد في الخواء، حملته هاربة وجدّته ترقبني بصمت.

وصلت لاهثة إلى عمتي فصاحت بلؤم "رجّعيه لأهله" وأوصدت الباب، انسحبت خائبة لأمّي أشكوها الفقر وسوء الحظّ، فرشقتني بنظرة ازدراء قاسية وردّت "ما أنت مسلمي اتصلي دايركت (direct) بالربّ بيحل مشاكلك وما تشكيلي، حلّي عنّي أنتي وابنك" وتّرتني تفاهتها، اتجهت للمركز الديني طالبة للعون وساعدتني مديرته، إذ تكثر في شهر رمضان الفضيل الصدقات.

حصّلتُ مئتي دينار قد تسدّ بعض احتياجاتي، وتدفقت عليّ عروض زواج

بأغراض مبطّنة، فهناك من أرادني زوجة في بيت والديه شرط أن أقوم على خدمتهما، وآخر طلبني زوجة ثانية للمتعة لكثرة عياله، وآخر...، وأشعرتني العروض بالخذلان لأنّهم أرادوا الخروج من مآزقهم على حساب عثرتي فأصبت بخيبة تيه لأنّ القليل من يصنع معروفا خالصا لوجه الله، ورفضت فكرة الارتباط إلّا من ميسور خلقُه الإسلام. سرت بأزقّة تحت ستر العوز وتحايلت على ظروفي لاستمتع بمكسبي الضئيل، نصحتني صديقة اللجوء لجمعية حماية الأسرة لأنّها تقدّم العون والإيواء لمن هنّ بمثل حالي، أقمت ثلاثة شهور لديهم وأمّنوا احتياجاتي لكنّي ضقت بقيود قيّدت روحي فالمكان كالسجن، وتحرّكاتي محسوبة لا أغادر إلا بإذن مقنع وأرجع بوقت محدد، لم يكن هذا مأربي إذ اعتدت الاستقلاليّة فهربت منه خفية عن الإدارة.

***

٧

الذين يدركون خبايا نفوسنا يأسرون شيئاً منها
«جبران خليل جبران»

صرت كيمامة دهمتها أعاصير وتاهت عن سربها في عالم بعثر أحلامي واقتنص وجودي، فقدت الأمان والملجأ لأعبر أزقّة نائية، أرخى الليل سدوله عليّ وسرت بلا هدف في شوارع خوت إلا من نساء الليل الغافي اللواتي يبعن المتعة الحرام، ويتضوع عطرهنّ وتصطبغ وجوههنّ بمساحيق تبرز الزيف الشكلي ناثرة تلميحات رقيعة، ليفيض الفجور حولي، وشعرت بقسوة الحياة.

وصلت منزل السيدة رائدة والإرهاق يهدّني وابني على كتفي، طرقت بابها وجراحي تئن من ظلم ازدرد أحلامي بلا رحمة، استضافتني لأيام وساعدتني بما تقدر وجمعتْ القليل من المعونات المادية والعينيّة من الأثرياء لأننا في زمن يتّصف بشحّ الأنفس، ودّعتها لأبحث عن مكان إيواء، وقدّرت عطفها موقنة أنّ للأرواح جنود مجندّة من تألف منها اتفق وإن اختلف نفر.

استأجرت من عجوز صاحب مطعم فلافل غرفة مفروشة، أوصلني إليها وعيناه جاحظتان ترقب تحرّكاتي أو تجول بفضاء الغرفة، أو يثرثر ليظهر ثقل ظله، لم أعره اهتماما، فغادر، أغلقت باب غرفتي لأخفف قلقي، لكنّها بدت موحشة وحكى أثاثها عبور أزمنة، استحممت لتهدأ روحي لكنّ أفكاري صفعتني تحت المرش مع انسيابية الماء من عبثيّة ظروف كبّلتني بقسوتها. دقّ العجوز بابي مساء مع استيقاظ ابني باكيا فاستفسر عن السبب، وبيّنت له أنّه يعاني من السخونة، أدرك عَوَزي، غاب ساعة ليحضر خافض حرارة وأقراص فلافل وخبزا وأبدى تعاطفا معنا، ابتسم برضىً ثم تلفّع بطرف شماغه وغادر، وأخذ يزورنا بين الفينة

والأخرى حاملا طبق حمص وبعض الفاكهة وحلوى للصغير.

جاء بعد شهر مطالبا بأجر الغرفة وثمن ما احتجناه كدين متراكم عليّ، وظننت أن ما قدمه صدقة، خجلت منه إذ لا مال معي إلّا ثمن طعامنا، فرجوته "عمو اصبر لما ألاقي شغل أو خلّيها صدقة، ما شاء الله حالتك ميسورة" قال بحنكة استغلال: "يا وليّه الدنيا علمتني لكل شيء ثمن، ليه ست بحلاوتك تشتغل وحقك علينا الدلال"، حيّرتني نظراته الغريبة المتوارية خلف مسحة كحل تخفي ذبول عينيه، ومسواكه يجول فمه بشكل غير لائق مُظهرا فكّا خاويا إلا من ناب وخمسة قواطع وضحكاته ترنّ بغوغائيّة غرائبيّة.

بعد مواربات كلامية فهمت أنّ زوجته عجوز لا تلبي حمئة غريزته النشطة ويشتهي الاقتران من صبية، انتفضت وساوسي "يا حج، هات من الآخر" وضعني أمام خيارين أحلاهما مُرّ: إمّا أن أترك الغرفة أو يتزوّجني مدّعيا أنّه مغرم صبابة. صدمني هلع الفكرة وشردت وراء وعي خذلته الأقدار ليسكنني الجفاف من أخمص تكويني لآخر أمنياتي، وأيقنت أنّ الدنيا مصالح وعرضه خيار يائس لا فكاك منه، وافقت بصداق مقداره خمسة آلاف دينار مقبوضة والمؤخر عشر آلاف دينار، واشترطتُ بقاء ابني معي.

وافق فورا لكنّه لمّح لغلو المهر، أفهمته أنّ هذا لتحقيق بعض الأمان لذات هرمت من التيه وليس طمعا، ونويت العيش معه بما يرضي الله وانتقلت بعد عقد القران لشقة من أملاكه قائلا: "حبيبتي، الشقة إلك رح أسجّلها باسمك بعدين"، واشترط أن يكون الزواج سرّا عن أسرته، ووعد أنّه سيغرقني بخيراته وسيجهزني على حسابه، وأمّلت اقتناء عباءات وبناطيل جينز وبلوزات وأكسسوارات وحقائب وأحذية وغير ذلك مما خبّأته في أحلامي، قرر أن يأتي لمدة ساعتين عصر كلّ يوم لتناول الغداء ولاستلاب حقّه من علاقة زوجيّة ولا مبيت عندي، وافقت

لأنّي انطفأت من قهر الرجال، سمح لي بالخروج لقضاء حوائجي بعد استئذانه باتصال هاتفي، و تبيّن أنّه ليس سهلا "كُهنه".

في اليوم التالي جاء ومعه فتىً يحمل أكياسا كثيرة وعلبا كرتونية، فأثارني فضول لرؤية ما حلمت به، أقبلت عليه وقد أغرق جسده النحيل في الأريكة وابتسامة كِبر على سيماه وحرّك قرنيّتيه البارزتين حتى كادتا أن تزيحا عن موضعهما وحدّق بي بنهم شبق مشيرا "اجلسي"، ولف ذراعه حول كتفي والتصق بي وأخذ يشرح عن فنّ العلاقة الزوجية، وسرت يده بحركات لم أستجلِ سرّها وتمتم بكلمات أضاعت فحواها حروف تاهت عن مخرجها لفقد أسنانه، فأزدرت ريقي "أبو النمر شو بتعمل" فردّ "أرقيك من العين"، تحسّرت على حالي "ليه حدا عرف بزواجنا ليصيبنا بالعين" ولمّح للمضاجعة.

أجلت رغباته ريثما أرى جهازي، وفتحت الأكياس والعلب بمعركة حامية الوطيس ونظراتي تتقافز بحثا عن أمنيات غُلّفت بالأكياس وفتّشت عن ثياب تمنيتها لكن لا شيء من هذا، انتشلت نفسي من صدمة ذهول وأخذت أعدّ وألطم، إنّها ثلاثون قميص نوم بأنواع مثيرة بكلّ الألوان والأشكال وملابس داخلية محبوكة بخيطان ومزدانة بريش وخرز، تلبّستني قشعريرة خيبة، ثمّ انتقى قميصا لإثارته مدللا بكلمات سمجة "حبيبتي أنا محروم" وصوته كفحيح أفعى، ومداعبا بيد جففت الأزمنة عروقها.

بدّلت قمصان النوم بالتناوب كعروض للإثارة، ولمّا شرع في التقبيل تهاوى لاهثا وصدمت لتهاوي فحولة ادّعاها ولم تحرك الثياب المثيرة ساكنا وفشلت محاولاته كجعجعة بلا طحن، فقلت مشفقة "حج، الحبة الزرقا بتحل مشاكلك" ردّ مستنكرا "أنتي بتعرفي الفياجرا!". في اليوم التالي دخل كأسد والعلبة الزرقاء تطلّ من جيبه طالبا حقّه فأجّلت رغباته كي يرتاح، فنام قربي كنملة تحتمي بفيل

وعلا شخيره، كأنّي أغرق في شيخوخة مجففة واختنقت من أنفاس تعجّ برائحة سجائر وأشياء أخرى لتضاعف رغبتي للتقيؤ، وجاهدت لأدرّب مساماتي على تقبّل أنفاسه وحفر ملامحه في ذاكرتي.

صحا من غفوته وفتح ذراعيه المُشعّرتين ليحتضنني وكأنّها ملقاطا جبّارا ينفتح ليلتقطني أو غولا فاغرا فاه ليبتلعني، باءت محاولات المضاجعة بالفشل، فانفلتُّ ساخطة من أسوأ كابوس، إذ كيف تتزوج شابّة من عجوز يلهب غريزتها ويعجز عن إطفائها، لكنّه تعلّل أنّ ابني السبب، مع أنه ينام نوما عميقا في الغرفة الثانية، غفوت ليغزو حلمي سامر الذي ما شعرت أنّي امرأة إلا بين يديه، فاحتلم معه، وصحوت لأشتم من اقتحم حلمي لينغّص منامي والعجوز الذي ما نلت منه إلا مقعدة تدوّي أرياحا وتجشؤا مقززا وشخيرا مزعجا، قضّ الواقع المرير مضجعي لأصبح فريسة كوابيس تسكنني بإيحاء رعب، أردت أن أصرخ أريد حياة طبيعية كأيّ امرأة ورجلا حقيقيّا لا أشباه رجال.

طار صوابي وأسلمت روحي للتداعي حين طلب إرسال ابني لأهله، لأنه يغار من حبّي له وينكّد عليه ببكائه ويمنعه من الانفراد بي ليقضي وطره، احتضنته وتمنيت لو غرفتُ من روحي ليرتوي. كيف أُرجعه وحياتي دونه بلا معنى وأنا لم أتزوجه إلا ليقيم ابني معي؟ لمّح بالانفصال وهددني بالعودة للشارع إن لم أنفذ رغبته، بعد مشادّات كلاميّة اسوّد خافقي وأذعنت لرغبته مشترطة تسجيل الشقة باسمي، رضي بالفكرة، ترنّحت بأعتاب الصبر وأرسلته لأهله وخلت روحي سُلبت مني. لم أجد خلاصا من أزمتي سوى خروقيَ المترامية لأنّي تزوجت عجوزا نكدا.

في اليوم العاشر لزواجنا انبثق فجر جديد حاملا بارقة فرج لم أتوقعها، بينما نحن في غفوة سمعت طرقا عاتيا، إذ بأربعة رجال وعجوز شرسة يقتحمون

الصالة يعزفون ألحانا شاذة من شتم وزجر وتأنيب فوق رأس عجوزي الأقرع المتّهم بالجهل والغواية، انتفضت من فراشي لأرى خياله على جدران الصالة كفأر تلاعبه عصبة قطط، لبدت في مكاني خوفا، ساورتني شكوك بأنّهم عائلته لأنّهم يعنّفونه لزواجه مني بعد أن تسرّب الخبر إليهم وحملوه كعظمة في فم طائر جارح وانهالوا عليه ضربا.

اقتحمت المرأة غرفتي وشدّت شعري "يا فاجرة بتضحكي عليه عشان تاخدي فلوسه وهو قد جدك" ودفعتها بيدي فوقعت أرضا "احترمي المكان ووو..." وأخذت تعبث بملابس نومي الثلاثين وتصكّ أسنانها غيظا "إن كنت فالح إفلح معي يا خرع" وانبرت زوجته "يا جاهل بتتزوج واحدة بعمر أحفادك عشان تخلّف ولاد يشاركوا ولادي الورث"، وأدركت سبب كرهه لها لأنّها "بتسدّ النفس ما بتغوي ولا بتغري" ولم تهدأ حتى عضت كتفه وداس أحدهم في بطنه، فنهره الأكبر "عيب هاد أبوك".

أدركت فظاعة المطب ودثر ربكته بالسكوت، تساءلت ما مصيري بعد الكرنفال السريالي، باتت فرصة الخلاص وشيكة فقلت لهم "خذوا أبوكم واتركوا شقتي" نظر إليّ بمكر "خوديها وادفعي أجرتها" قذفت عيناي شررا "أنت قلت إنها من حقي، والله بتستاهل اللي صار فيك" ردّ بصفاقة "ليه مجنون لأعطيكي شقة بخمسين ألف" خرجوا واسودّت بعينيّ الدنيا، خداع ونفاق وهزيمة تلو أخرى، تمّ الطلاق في المحكمة وقبضت عشرة آلاف دينار مؤخر الصداق، فرحت قائلة "أحسن من وجهك" لتكون مدّة زواجي عشرة أيام وكأنّي قبضت ثمن كلّ ليلة ألف دينار وأشفقت عليه لأنّه خسر ولم يستمتع بمضاجعة واحدة.

تركت الشقة ليبتلعني درب ليل بلا نهاية وصببت قهري على حظوظ الحياة القاسية التي تجافي غاياتي؛ لأنّي المأزومة في كلّ مكان وزمان. وصلت الفندق

وتحصّنت بوحدتي وشهقت الصعداء لانزياح همّ ثقيل عن قلبي وزفرت سوء حظ كابوس يطاردني، كأنّ الدنيا "سوق بالة" أحيانا نشتري حذاء مستعملا رخيصا فيريحنا السير به، وأحيانا نتكلف ثمن حذاء جديد لا نستطيع السير به، لأنّ الناس نوعان: نوع يقبل على العطاء بلا مقابل وآخر يدمن الأنانية الموجعة. وظلّت التجربة الفاشلة وشماً بالذاكرة وناء مشجب الأمل برغباتي ورأيت عثراتي كالحجارة فحرصت عدم التعثر بها بل أجمعها لأبني سلما نحو الاستقرار.

* * *

ومضات فرح

١

الشمس لا تشرق في اليوم مرتين والحياة لا تعطى مرتين

فلتتشبث بقوة ببقايا حياتك ولتنقذها

«أنطون تشيخوف»

احتدمت أفكاري لتثير حيرتي، ماذا أفعل بثروتي؟ وتوالت تفاصيل صور حرماني وتصدّر مخيّلتي مقتنيات قيّمة وممارسات ترفيهيّة أشتهيها، ما ضير ذلك والعالم كلّه ينقصني! وذاتي تتوق للانفلات لعوالم الثراء، هل أشتري شقة صغيرة في حيّ شعبي تؤويني من عثرات الزمن أو أنفقها على ذات حرمت متاع الحياة وجرّحها الفقر؟ تذكرت معلومة سمعتها صدفة من أمّي مفادها أنّ أهلها أثرياء يسكنون بلدة إهدن اللبنانية اقتحمتني فكرة السفر إليهم لعل الخير فيهم، لكنّ أمّي أصرّت على كتمان أمرهم عنّي.

قررت السفر إلى لبنان واتصلتُ بصديقتي اللبنانيّة ورحّبتْ بمساعدتي، وصلت دمشق عبر الطريق البري وإذ بصديقتي تتصل لتعتذر عن لقائي لاضطرارها للعودة إلى عمّان، لم أصدق التبرير لأنّي شخص غير مرغوب فيه لتشرّدي، احترت هل أرجع أم أتابع إلى لبنان التي أضحت على مرمى حجر! قررت المتابعة لأنّي ميسورة الحال. أمضيت سويعات في دمشق لأنفق مبلغا لشراء بعض الملابس من سوق الحميدية وأكلت "بوظة بكداش" الشهيّة، وصلّيت في الجامع الأمويّ وابتهلت لله أن يمنّ عليّ صلاة في المسجد الأقصى وهو محرر.

قبل المنطقة الحدودية تغدّيت في مطعم "الحدائق المعلقة" في بحيرة "زرزر" عند مفرق الزبداني، ساورني قلق بشأن تدبُّر أمري في بلد جذري منه وأنا غريبة عنه، قررت البحث عن جذوري في لبنان ولأرى هذا البلد الذي لقبّ بأرض

البخور لطيب عبقه، ولأنّه نموذج لتعايش كلّ الطوائف والانتماءات ولتلاقي الديانات الموحدة ومثال لاحترام العبادات المتعددة الطقوس.

أوصلتني سيارة للفندق بمنطقة الروشة، نمت لنيل قسط من الراحة بلا استسلام للقلق، وفي الصباح احتسيت القهوة في الشرفة المطلّة على بحر يحتضن صخرة الروشة المهيبة التي تتحدى الزمن، تأمّلت من علو إطلالة الأبنية الشاهقة والكورنيش الوادع والمقاهي المنتشرة، ثمّ نزلت للتنزّه في المنطقة الفضاء حيث ينتشي الربيع بعبق الأقحوان ويكثر المتنزّهون بالأنحاء ويختفي العشاق بين عيدان القصب الوارفة لتبادل القُبل وأشياء أخرى فاستأت من الفجور العلني. تنوّعت أردية المحجبات، لكنّي ابتلعت ريقي حياء من فتيات تتمايس بأذرع وسيقان وصدور عارية، واسترق ناظري صبية نضّت رداءها على الملأ لتستلقي بثوب البحر تحت وهج الشمس ليصطبغ جلدها "بالبرونزاج".

دوّت سيارة بصخب الغناء وأقبل الناس من أنحاء مختلفة والتهبت الأرض بالدبكة والرقص، وأدهشني شعب تجمعه رابطة الرقص وتفرقه المصالح السياسية ويُغرق البعض الفساد المالي والخلقي، استمتعت بمشاهدة الحفل التلقائي، ثمّ ارتقيت ذروة الصخرة التي قيل أن اليائس من الحياة ينتحر من علّوها الشاهق ليكون طعاما للأسماك، نظرت لصفحة بحر مائج وهزتني جفلة خوف لأدرك أني أحبّ الحياة مع قسوة خيباتي.

أقلتني سيارة عصرا إلى وسط بيروت يسمّى "الداون تاون" تمشيّت على ممرات يكتسيها بلاط قديم مثل النمط الأوروبي الكلاسيكي. لفحتني مسحة جمال لوّنت مكانا شرقي الهوى أوروبي الشكل تنتشر بأنحائه المقاهي والمطاعم والفنادق وتتهادى البواخر والسفن على مدّ البصر، هنا آثار لكلية الحقوق الرومانية والعديد من المؤسسات التجارية والإدارية، التقطتُ صورة عند صرح الشهيد بساحة

الشهداء وخلت حمائم السراي الحكومي تهدل بدعوى الوئام بين مختلف الطوائف، ثمّ عدت للفندق مع أفول الشمس وقد تماهى الأفق بلوحة إبداع تجريدي في حضن الشّفق.

من خلال حكي أمي عن أهلها أدركت أنّهم ملتزمون دينيّا، فلجأت لبعض الكنائس لأسأل الزوّار عن آل طنوس، فزرت بعض الكنائس المتميزة بطراز معماري مبهر، وكأنّ حنينا ما يشدني لتلك الأمكنة، هذه كاتدرائية مار إلياس للروم الكاثوليك التي تناسقت بهندسة بيزنطية وزخارف شرقيّة، وتلك كاتدرائية مار جرجس المقر الأسقفي لمطرانية بيروت والمطابقة لبازيليك كنيسة ماريا الكبرى في روما، وقد احتفظت بأوّل مطبعة عربية، وسرقت معظم أيقوناتها وتهشمت جداريّاتها في الحرب الأهلية، ثمّ رممتها شركة "السوليدير".

ذكّرتني زيارة الكنائس بشرح معلمتي في مدرسة الراهبات عن دور العبادة النصرانية في فلسطين ولبنان، فكثرة الكنائس والمساجد دليل على حرية ممارسة الشعائر الدينية، إذ يجد النصارى في واحاتها الحياة النسكية التأمّلية وموئلا للدعوات الرهبانية والكهنوتية. تابعت مشاهداتي لطوابق فندق "السان جورج" الذي شهد أعتى المعارك الضارية، ولاحظت أثار الحرب الأهلية التي دارت لسنين وأدركت سببها الخفي هو ظلم الجبابرة لضعاف العباد، لأنّ المدن تنتصب فوق أعمدة نورانية وتعكس قلوب سكانها، فإن أظلمت القلوب وانتشر الظلم وعاث الفساد وفقدت النفوس إيمانها دُمّرت بأيدي أبنائها، فالظلم مؤذن بخراب العمران كما ورد بمقدمة ابن خلدون وليس للأسباب السياسية.

زرت جامع الأمين الذي اكتمل بناؤه بزخرفة هندسة إسلاميّة رائعة وأشرف الرئيس الحريري على بنائه الذي تعطل خمسين سنة لأسباب طائفية وسياسية، ودُفن فيه بعد اغتياله، وقد احتمى في سيّارة مصفّحة ضدّ الموت لينفذ قضاء الله

﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ﴾ [النساء: ٧٨]، ويُرفد المزار بآلاف الزهور الطبيعية يوميا من أسرته. دهمني الجوع فتوجهت إلى "بربر سناك" وأكلت بشراهة ساندويشات شهية مرتفعة الثمن وكأنّي أتذوق طعم الرفاهية.

بينما كنت أحتسي القهوة في أحد مقاهي شارع الحمراء الشهير الذي كان ملتقى نخبة المثقفين من أدباء وشعراء، لفت نظري رجل يحمل كلبا مع كيس كلوكوز، فحسدت الكلب لأنّه وجد من يداوي آلامه، اقترب مني كلب آخر فانتابني خوف وتجمّدت بمكاني لكن أقبلت عليه كلبة أصغر منه حجما من بعيد فأسرع للقائها واقترب بفمه من فمها وكأنه يقبلها واستدار خلفها ليتأكد من وفائها له، ثم تمددا على الرصيف وعيونهما تحاكي غزلا كلبيا، فحسدتهما لوفائهما، وأرعبني مرور كلاب "تشي تسو" وبأعناقها قلائد ماسيّة برفقة أقوى حرّاس لنجمة الإغراء التي كثُر قتلى إغرائها وضجّ اسمها في بلادنا، وبرز من ثوبها نهدان كمثريان اعتقلتهما حمّالة سوداء وتمايلت بغواية، ولاحقتها عدسات التصوير لتحكي عن أعمالها الفنيّة بصوت يفيض شبقا، تناغمت شهرتها بعالم الأمجاد والأضواء لرفاهية تافهة، لكن ماذا أعدت لآخرتها بعد ذبول جمالها وموتها.

أردت التسوق وشراء ملابس أنيقة من عاصمة الجمال فذهبت إلى سوق "مار إلياس" الذي ينبض بالحياة ليل نهار واشتريت أشياء متوسطة الثمن فكأنّ التدبير تعوّد مع أني أمتلك الآلاف، وأربكني جهلي بالمصطلحات الفرنسية التي يتداولونها لمسمّيات الموديلات والألوان، حمدتُ الله لأنّي لست رشيقة وإلا نفدت ثروتي على ملابس ماركات عالمية وعدت سيرا لإفلاسي، أحببت شراء ملابس مميزة للمحجبات فتوجهت لسوق الضاحية.

لفت انتباهي أنّ منطقة الضاحية تتشح بالسواد من سكانها وجدرانها وأسواقها ودمى العرض، وضّح لي السائق سبب السواد " فلة عاشوراء" التي تقام لها أقبية

عزاء تمارس فيها "اللطمية" للطائفة الشيعيّة ويكثرون النواح من رثائية لإحياء ذكرى مقتل الحسن والحسين، ورأيت ملصقات معلّقة ستجدي الدعاء (يا حسين ويا علي ويا فاطمة ـ رضي الله عليهم ـ) وتساءلت في سرّي، لِمَ لا يدعون (يا الله)؟ وهل يبكون سيّدا شباب أهل الجنّة أم يبكون أمانيهم الهاربة؟ وأعجبتني فكرة موسم البكاء لاحتياجنا إليه، فكلّ يبكي على ليلاه وبكيت ذاتي التائهة، وأيّدتُ حاجتنا إلى لطميات لنطهّر أنفسنا من الآلام! وعلمت أنّ هذا الطقس لم يكن زمن محمد عليه الصلاة والسلام.

أكثر السائق من ثرثراته الهاتفيّة السخيفة ليخفف توتره من حمئة أزمة سير خانقة، فالمشوار الذي يحتاج لدقائق يأخذ ساعتين لعدم تطبيق قوانين السير وتلف الطرق، ومما يخنق المواطن تقنين الكهرباء المستمر لساعات طويلة، لتطالعنا شبكة أسلاك الكهرباء الهائلة والمخالفة للقانون والتي تؤكدّ تلف البنية التحتيّة لبلد يزيّنه الإعلام بالرقيّ، وينخره الإهمال وصفقات الفساد المالي المعلن والخفي، وآراء تستشفها من أقوال العامّة "اسرق وكول وطعميني، وطعميني لطعميك حتى نكيّف لنعيش" وظلّ السؤال عن "آل طنوس" بلا جواب، وهزّتني ارتطامات اختلقها زمني واكتشفت أنّي أبحث عن إبرة في كومة قش.

تجوّلت في الأحياء الشعبية ورأيت شبابا يسهرون حول الأركيلة على أرصفة موبوءة بالنفايات أو يلتفّون حول شاشة عرض لمتابعة المباريات، وتعلو هتافاتهم التشجيعيّة ويفرحون جماعيا ويطلقون الألعاب النارية لفوز فريق رياضي يؤيّدونه، وينطبق عليهم قول "العرس لغيرنا والزغاريد عنا"، وجدرانهم صحف الحيّ تحكي عبارات التضاد الانتمائي والصراع السياسي، كلّ يشيد بانتمائه السياسي أو طائفته الدينية، لكنّ العداوة المعلنة والخفيّة مغلّفة بحبّ الوطن، هذا بلد التناقضات لأنّه مع اشتعال قصص الحبّ تذوي الانتماءات الدينيّة ويتحوّل

التعصّب لكلمات واهية ليعقدوا زواجا مدنيّا بين مختلف المذاهب.

اتفقتُ مع سائق على حفنة دولارات مقابل توصيلي إلى جونية شوقا لرؤية كنيسة حريصا التي شهدت أكليل أمي وأبي، أذهلتني إطلالة المدينة على خليج البحر ومحاطة بجبال حريصا، تجوّلت في جونية المتميزة بالتراث العريق وسوقها التجاري القديم الذي يقع بموازاة البحر، دكاكينه متراصة وقناطره قديمة وأبوابه الخشبيّة ضخمة، غطت دروبه بالحجر الأسود وحوّلت أماكنه الأثرية إلى مقاهٍ ومطاعم مثل مطعم التراث والمنتجعات السياحية والفنادق تمتاز بخدماتها. كان السوق مركزاً تجارياً يصدّر الحرير إلى مدينة مرسيليا الفرنسية، وبضاعته متنوّعة خاصة العباءات المطرزة يدويّا وأكلت حلوى "المصبان" الطيبة المكونة من اللوز المطحون بالسكر.

حلّقت في المصعد الكهربائي (التلفريك) وأصابتني رعدة من الصندوق المحلّق بين السماء والأرض، لكنّ المناظر الخلابة وأدتْ خوفي واستمتعت بالانتقال من البحر للجبل والسفح يموج ببهاء جماله ثمّ صعدت قطارا كهربائيا شقّ السفح وسط الأشجار لقمة حريصا حيث يعلو تمثال السيدة العذراء فوق كتدرائية قابعة على امتداد قاعدة على هيئة شجرة أرز، وسمعت تراتيل قدسيّة من الكتدرائية التي هي محط أفئدة الحجيج المارونيين، ثمّ عرجت على سوق الكسليك المشهور عالميا والمشابه لشارع اوكسفورد في لندن ويطلّ على البحر والجبل، واستمتعت بالتسوق لإضاءته المبهرة ولأنّه يزدحم بروّاد السينما والملاهي ومقاهي الأرصفة.

في طريق العودة تماهت دور العبادة المحفورة في صخور الوديان أو المعلقة على رؤوس الجبال بإطلالة رائعة، ثمّ تعشيت بمطعم "مانويلا" مقابل كازينو لبنان ولعقت البوظة من محل "بشير" وفي زحمة السير وقف رجل وسط الشارع لحيته كثّة مرتديا ملابس أتقياء الزمن الميلادي فاتحا ذراعيه متمثلا شكل الصليب، كأنّ

به لوثة عقلية أو لعله سلفيّا كاثوليكيّا، هذا بلد التناقضات، مناطق راقية كأنّها جزء من أوروبا وأخرى شعبيّة طافحة بالفقر، شدّتني اللوحات الإعلانية التي تتصدّر الجدران والأعمدة لفتيات جميلات يستلقين بغواية بملابس النوم الخليعة أو ملابس البحر، ومرّت سيارة القمامة "سُكلين" وعليها ملصق لحسناء سافرة تحمل وعاء القاذورات بإغراء، مسكينة المرأة السافرة صورتها في كلّ مكان حتى في القمامة، هل هي بلا قيمة لربطها بترويج منتج، وما علاقة المادة الإعلانية بها؟

في اليوم التالي أقلتني السيارة إلى جبال فاريا، أفطرت مناقيش مشروحة صاجيّة بمطعم جسر القمر الذي يتدفق النهر بين طاولاته عند شجرة يزيد جذعها عن المتر وتمايزت السفوح بمنازل يكتسيها القرميد الأحمر، أطلت كنيسة يعتليها قرميد أسود على هيئة مجسمات مخروطية كنمط بناء روسي، وداهم الضباب الكثيف الجبال ليختبئ عرس الجمال الذي أنساني هموم الدنيا، ركبت المصعد الكهربائي المعلق بين السماء والأرض، لأرى قمما مكلّلة ببقايا ثلوج وسماء صافية، الشلالات تتدفق من القمم حاملة ذوبان الثلوج على السفوح للوديان والأنهار لتلتقي مع بهاء خضرة السهول، سبحان الله وتذكّرت حديثا نبويّا "التفكّر في خلق الله وتسبيحه عبادة لها أجر صلاة سنة".

تابعت الرحلة إلى"مغارة جعيتا" جوهرة السياحة اللبنانية وصعدت إليها في القطار السياحي، وأمام تمثال "حارس الزمن" الذي ينتصب عند باب المغارة العليا نزلنا، واعتليت مدرّجاتها لأواجه النوازل والصواعد الصخريّة كالثريات ومنحوتات مهيبة حفرتها المياه الكلسية وصبغتها بألوان متعددة، والمغارة مكتظة بأشكال متنوعة كالقباب المتعالية والستائر الكلسية المتوهجة بلمعة مياه تنزّ منها، وتعكس كشّافات أضواء مختلفة الألوان على الصخور، والمدهش ثبات حرارة المغارة مع تبدل الفصول. ركبت زورقا نهريّا في المغارة السفلى إلى قلب بحيرة

رقراقة تتهادى بين الصخور المتساقطة بأشكال زخرفية غنية بالسراديب والأنفاق والمغارة اكتشفها الرحالة الأميركي وليام طومسون، تابعت لنهر الكلب الذي تتدفق مياهه بغزارة لتحدث ضجيجا شبيها بالعواء والذي يزداد مع ذوبان الثلوج من الجبال العالية.

ذهبت لبلدة إهدن الجبلية ذات المناظر الخلابة وسألت عن عائلة أمّي وعلمت أنّهم استقروا في مدينة مادبا الأردنيّة منذ الحرب الأهلية، وقهرني مكر أمّي. في اليوم الأخير وعلى طريق صيدا جربت نكهة الأركيلة في مقهى "كنعان" الزجاجي الجدران قبيل غروب شمس بحري حيث تشكّلت لوحة سيريالية ناطقة بالجمال والغيوم متفرقة تناوئ هيبة السفن المتمركزة في المياه.

تجوّلت في أسواق عروس الجنوب وأحيائها القديمة التراثية من العصر العثماني وما زالت مأهولة بالسكان وترمم من قبل هيئة الآثار وزرت خان الإفرنج وقلعتها الأبيّة، وأرجحني قارب إلى جزيرة "الزيرة"، وحين هوى بي الجوع أكلت "كعكة أبو عرب العصرونية" أثناء استراحتي عند كورنيش صيدا، وأسعدتني أيام اقتنصتها من مرارة الزمن، وتأملت البحر ورحت أشكوه وقد راودتني تلك الخاطرة التي حفظتها عن ظهر قلب:

قد قصدت البحر يوما
شاكيا نار الضجر
فتنحى عن طريقي
باكيا حدّ القهر
دنوت منه أرتجي
سكوت دمع المطر
ونظرت للوجه الحزين

وكاد قلبي ينفطر
جئت أشكو وحدتي
فراعني سير القدر
يا بحر اسكن وحدتي
فالشكوى لا تحيي البشر

غادرت صباح اليوم التالي من ميناء شارل الحلو متجهة إلى حبيبتي عمّان، داخلني الأمان عند الحدود الأردنية ولفحتني العزّة وخضتني فرحة طفل أعادوه لأمّه ولبلد يسكنني وأسكنه.

***

٢

يقودنا القدر لوعد عشق يومض في لحظة لا نتوقعها وينخر تلافيف القلب
ليعبق انسكابا في ذاكرة الوجود

في عمّان تماهت الدروب بروعة العتبات كحلم ترنّح بشذى الورد، وصلت ليلا ونزلت في فندق ثلاث نجوم ليالٍ لأنّي مللت سكنى الفنادق الرخيصة الموبوءة بآفات السقط والدونيّة، كانت إقامتي سياحيّة لمدة وجيزة، لأني تذوّقت طعم الرفاه ونفرت من الفقر. دعوت صديقاتي لمطاعم الصويفية وملاهي الجبيهة، ثمّ استأجرت شقة مفروشة قرب المعهد الذي انتسبت إليه لتعلّم السكرتاريا في الشميساني لرغبتي بمزاولة هذه المهنة في شركة لنفوري من البيع وسماجة الزبائن ووقاحة أصحاب المحال.

انتهت الدورة وقاربت ثروتي على النفاد وعزّ عليّ مفارقة الرفاه وعدت لدوامة البحث عن عمل ولكن بلا جدوى، لم أستطع سداد أجر الشقة، فحُجز على مقتنياتي وملابسي وخرجت خاوية الوفاض، خطرت لي نصيحة جدتي "يا هبلة خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود والدنيا ما إلها أمان متل الرجال" غمرني تيه التساؤل: هل سددت بؤر حرمان في ذات حفر العوز فيها غدرانا؟ هل حققت أحلاما مؤقتة وطويت صور حرمان مقيتة؟ هل أهدرت ثروة لم أحلم بها يوما لأعيش رغبات في واحة اللامبلاة؟ هل كان عليّ توفيرها لأيام شحيحة مغلّفة بالذل؟

لقد تمتّعت على حساب المسكين أبي النمر واكتشفت أنّي كأمّي وريثة بذخ وترف حلو يصعب على نفس ذاقت الحرمان مقاومته، قرّعني الندم بقسوة لكنّي اعتدت الضياع والتعتير، وفقدت الأمل بالعثور على أسرة وهمية. عدت لطلب العون ممن أعرفهم، وسُدّت الأبواب بوجه امرأة طاوعت رغباتها ولم تدبّر أمرها،

عنّفتني عمتي لاستهتاري واستثقلتْ وجودي في بيتها بلا عمل، لكنّها وعدتني بالاستقصاء عن حقيقة وجود أهل أمي في مأدبا من خلال معارف أمّي لرغبتها منهم بتحمّل عبء مسؤوليتي.

قدّمت طلبا لقنصلية دولة أجنبية وكانت القائمة على إدارتها سيدة من العائلات المعروفة بالأردن استقبلتني وأعجبت بكفاءتي في العمل على أني موظفة مسلمة وعاملتني معاملة جيدة، لكنّها اكتشفتْ من خلال السؤال عن ماضيّ أني كنت نصرانية، فتحوّلت معاملتها اللطيفة لعداوة وأعلنت أنّها لا تستطيع رؤيتي وعاملتني بقسوة ولؤم فلم أحتمل قسوتها، فتركت العمل في القنصلية مع أني بنيت آمالا على هذا العمل وعدت للطريق بلا سند.

ذهبت لمركز تجميل واختبرت صاحبته قدراتي وبُهرت لأدائي فعملت عندها وحددت لي راتبا يستر عثراتي وأعطتني مالا لأستأجر شقة صغيرة قريبة، وثّقت علاقتي بها وطلبتْ رفقتي إلى حفل الحلاقين في قاعة مميزة، رفضتُ لأنّي لا أملك رداء مناسبا لكنّ رغبة التغيير حثّتني لتدبّر الأمر، اشتريت تنورة مستعملة وأخذتها للخياط لتوسعتها، وافق دون أن يحدد الأجر وأعطيته رقمي ليتصل حين ينتهي، اتصل بي فذهبت لإحضارها، لكنّي أجرة تعديلها صعقتني جادلته باستياء "ما بدفع ثلاث دنانير بتنورة اشتريتها من البالة بدينار ونص" ردّ معتذرا "عشان خاطر عيونك ما بآخد قرش" دغدغت نبرته مشاعري فتورّد وجهي بمسحة شفق، وسكبت نظراته جذل الحياة في عروقي ليزهر قلبي بأطياف برّاقة.

لفحتني ابتسامته الوضاءة واستلبتْ نظراتي ملامح وسامة مذهلة وشباب متوهّج، عيناه وسنيّتان تهمسان بأسرار بحر بلا قرار، تماهت روحي بعربدة عشق بلا ضجيج، وكأنّ شقاقنا ألهب جذوة حبّ كتلك التي اشتعلت بين جميل وبثينة لمّا حفر الشقاق غديرا للحبّ الغافي فيهما، لم يكن ما اكتنفني نزوة عابرة أو ومضة

وجدانية تنتفض تارة وتخبو مرارا، غادرت وشكرته برسالة هاتفيّة فردّ "السرّ بصاحبة التنورة"، توالدت المكالمات لنثرثر كثيرا وأحيانا نفتعل لقاءً عابرا لنروي ظمأ الشوق الآسر.

كان دمث الخلق هادئ الروح بركانيّ الإحساس، هاتفني يوما فأخبرته عن ملل يعاقر روحي وجوع ينتهكني، انتظرته، أتى وبحوزته "بيتزا" التي أعشقها تأملني آكل بشراهة وأعبّ العصير، فضجّ ضاحكا وردّ خصلة ناشزة عن عيني وجابت عيناه جسدي قائلا "بتشبهي تماثيل حسناوات حديقة فرجنر، جننتيني، بحبّ صراحتك وجرأتك" غمرنا غسق شرفتي وشغفتنا تهويمات عشق نديّة دثّرت روحينا بومض وله، حدّثني عن دراسته للفنون الجميلة في فرنسا لكنّه احترف الخياطة وتصميم الأزياء لأجل الكسب المادي، وأراد الاستقرار بباريس، لكنّ حظّه العائر أعاده للعمل في مشغل للخياطة، غادرني بعد أن ترك وشما في حنايا القلب، ورسمته بمداد وجودي التائه لأحيا سرمدية الروح.

أشجاني كوبيد الهوى لأترنّح حالمة كأنّي أتوسّد صدره لأحصي خفقات قلبه، أنفاسي ترتدّ مضمّخة عطرا هائمة بهمسه، عرّش الاشتهاء كالأثير وخضّ دمي ألف نداء، هذا الإحساس لم يصلني من أزواجي، أيقنت أنّي عاشقة وحبّه كَحُبِّ إيزيس للبحر لو غرقتْ يحملها الموج برقّة حبيب للنجاة أو كسبيكة مشعّة من روحه غرسها بنطاق محدود لأمل يتلاشى بلا وجود. بعد أيام جمعتنا أريكة غرفتي وألبسني قلادة بلمسة حانية "صدرك زاد القلادة جمالا" أخفيت فتحة قميصي بتلقائيّة عن فضول عينيه، فقال "اتركيها وما تخنقيهم بحرير أسود حتى يطلّ الضو من السفح لقمة التل" ليس كلّ رجل يتقن التعبير عن الحبّ، وتعذّر عليّ مقاومته فسهوت لحظات على كتفه وخلت الدنيا ملكي.

تناهت من التلفاز أصداء حالمة لإيقاع لحن شهرزاد وهي في ذروة حبّها

لشهريار فانحنى طالبا مراقصتي، لم يصدّني الصبر فاستسلمت لذراعيه غارقة في عينين كمسكبتي بنفسج باحثة عن ذاتي، تضوّعت زفراتي فرحا ومنحتني جاذبيته جسارة لألمس حنايا وجهه لتشتعل دواخلنا بضجيج الرغبات، وتراءت لي صور عرس وزغاريد، ابتعد عني قائلا "شو رايك نلعب ورق كوتشينة" أمضينا الوقت في الضحك واللعب والتشاكس بسذاجة عبث الأطفال، اتّسع قلبه لتقلّبات مزاجي وحماقاتي، ثمّ تركني قبيل الفجر ونسيم عطره لأستلقي على سرير واهٍ وغفوت لألتقيه بمنامي، فما بين روحينا اجتياح ألق لا رديف له، فالعشق حبيس الواقع طلق في الأحلام.

لبّى دعوتي لحضور حفل زفاف صديقتي، جلسنا متقابلين وتناجينا كالحمائم، واشتدّ الغناء الفلكلوري، فشبكنا اليدين للدبكة ودقّت الأقدام وتعانق قلبينا لصخب إيقاع القِرَبْ، غمرتنا السعادة في حضرة الحبّ متغافلة عن عذابات غائرة، افترقنا ليرسل على هاتفي "إلى حبٍّ أعشقه وأعشق كلَّ ما فيه، فهل في العشق ما يشفي من الوله ويعيد النفس ويحيها" رددت "جاهدت أن أخفف من وطأة حبّك فلم أستطع إلا أن أحبّك أكثر وأمتلكك لأخوض غمارك وتنسى كلّ امرأة سواي" أدركت أنّي منذ أمد أحترق شوقا لرجل يصهرني بنيرانه ويشظيني وبومضة عشق يلملمني ليسكن بقايا وجودي وأحيا معه طقس الخلود ويغدو عالمي.

التحقت بدورة تطوير الأداء وفقا لآخر مستجدات التجميل وتفوقت، فرشحتني مديرة المركز للعمل في دبي عند صديقة لها براتب مغرٍ رضيت لتوافق شروط الاغتراب عليّ، لكنّ قلبي رفض وهمس لي: كيف تسافرين وخلفك حنين ونبضات قلب وبقايا عشق تضم المكان وتنام على صدره؟ كثيرا ما تصادفنا وجوه لا تلتصق بالذاكرة ونحلم بالكثير لكنّ حبّا واحدا يغوص الأعماق وينطبع كوشم على جدار القلب.

آثرت عدم السفر لأنّ البُعد يجفف الحنين وما بيننا علاقة عشق صادقة بعيدة عن التواصل الجسدي، لأننا نرفض الحرام، حكى لي أنّه يشتهيني بالحلال، وندعو الله أن يغفر ما يحدث من معاصٍ بأمر العشق، أيقظ خالد قلبي دون إنذار مسبق وكأنّه كان غافيا في ذاتي منذ الأزل، جمعتنا ألوان حبّ أسعدتني وخففتْ إحساسي بفقد الأمان لسنين عابرة. لكنّ علاقتي به بدت كسفين رمال متحركة لا أدري موقعي فيها، فلم يعدني بالزواج لأنّه زوج وأبّ لثلاثة أطفال وظروفه لا تسمح بتكوين أسرة ثانية، أقسم لي أنّ قلبه لن ينبض إلا باسمي، وذكراه ستلون شقائي بفرح حالم، غادرني بمناجاة جارفة لتبعثرني وتُحيلني لكينونة واهية.

حبّه نور راودني قبل وجودي ولا يقارن بسخافة أزواجي، دوّخني الصراع بين قلبي وعقلي وشلّ حركتي عن احتياجات الحياة الضرورية، فأخبرته عن عرض العمل في دبي وما يمنعني من قبوله ألم فراقه، شجعني على السفر لأن العمل في الخليج العربي حلم المتعثرين في هذه الحياة وفرصة العمر، وطمأنني أنّه سيتواصل معي على الانترنت، لكنّي أردت الهروب من أحاسيسه الضاغطة مكتفية بعشق لن ارتوِي منه، وصدعتني ترنيمة "الحبّ من غير أمل أسمى معاني الغرام".

راهنتُ عليه بعظَمة الحبّ لذا خسرته وقررت مقاطعته كي تخبو معاناتي، فغيّرت رقم هاتفي وسكني وتهت في الزحام، كي لا أظل مشتتة بمتاهات الشوق لأجل حياة واهمة، فحبّه كعطر تلاشى من زجاجة وعلقت الرائحة فيها كذكرى طيبة وظلّ نورا يناور أطياف أحلامي، فالحياة لا تستقيم بالحبّ وحده واحتياجاتي كثيرة، وكأنّ قدري قد تواطأ خفية مع حظي، عقدت العزم بخطى حثيثة نحو المجهول لتمضي الأيام بمؤشرات الوداع ولتُقصيني عن حبّ وهب سعادة لنفس متأسّية بقسوة الزمن، حصلت على تأشيرة السفر، وانتقلت من مكان لآخر لاستكمل إجراءات السفر، جرّتني قدماي لمطعم بالشميساني بعد أن أعياني

الجوع، أكلت بنهم خرافي وكأنّي لم أذق الطعام منذ سنين.

نظرت حولي باحثة عمن يرقب شراهتي، لكنّ صوتا لاهفا اخترقني بحيادية "ماريا، ماريا" التفتُّ للنداء وفوجئت بحضوره الطاغي فلم أصدق عينيّ وخلت نفسي واهمة، طوّقني كعملاق وكدنا نحلّق في عوالم برّاقة لكنّ المكان لا يسمح، صافحته لينسكب بروحي إكسير نشوة، بدا اللقاء كحلم سربل قلبي العابث بالضياء، طلب لي قهوة مُرّة، اعترضت "حلوة، بتكفّيني مرارة الدنيا" ترصّدت رجفة شفتيه وهو يعاتبني لهروبي منه وأسمعني قولا قرأه في كتاب "أرى فيك كلّ النساء وعند موانئ شفتيك ملأ باخوس جراره وأسكر العالم"، فاستعرّ شغفي وتوهّجت بالحنين.

ترنمت الهمسات بالهوى واستبقيته بمحراب حبّنا وذوت كلماتي وأعلن الصمت وجوده لتترنّم دواخلي "بعيد عنك حياتي عذاب". أيقنت حقيقة، ليس الحبّ البقاء مع من نحبّ لكنّ أن نبقى في قلب من نحبّ، بدا كطير داجن في زمن غدت كلّ الطيور جوارح، ندبت لوعة حظي لأنّه هو من أريده وأجزم أنّي سأفقده لأنّي امرأة نذرتْ له نبض قلبها وأدركت حقيقة بائسة؛ أنا أختار الرجل المناسب في زمن غير مناسب وأختار رجلا غير مناسب في زمن مناسب، متى يكون اختياري مناسب لزماني.

تحدد موعد سفري وأصرّ أن يمضي ليلة الوداع عندي التي صادف أنّها ليلة "الفلنتاين" عيد الحبّ الذي يلهب مشاعر العاشقين، ليلتها استمتعت بفورة عبارات خواطره الخلّابة حين قال"يكفي أن تبتسمي ليورق المستحيل، فأنت في ثنايا الروح منذ الأزل" تأمّلت حركاته وسكناته وهمت بتقاسيم أصدائه مغنيا "سيرة الحب" وتلاشيت مع سيجارته المحترقة بين أصبعيه، وعبثت أنامله بشَعري الأشعث وكأنّي امرأة من بقايا حلم.

طلب رفقتي للمطار رفضت، لأنّي أخاف الاغتراب وأكره الوداع، للمطار رهبة، الوجوه كالحة تمطر حزنا في معابر الغائبين، وجدته بالانتظار، خلت أنّي صلبة لكنّ حزن عينيه هيمن على روحي فأوشكت تتداعى، ابتدع كلمات للتصبير ونمّقها بأعذب اللهفات، لتتمازج شهقاتنا بحرقة وعجزنا عن إخماد لهيبنا، لم أدرِ أيّنا يضخّ وقود الصبر للآخر، أأستبقيه في ردهة اللقاء الأخير أو أتوارى خلف بوابات متخمة بدمع الوداع! انقبض قلبي وصرنا كطفلين يمسك كلّ منّا يد الآخر، انتزعت يدي عنوة وتجمّدت الحروف على شفاه وجلة وبدت عيناه كاحتضار شمع ليلة ميلاد، وتغلغلتْ نظراته عبر مساماتي كطلق ناري لتحكي لوعة الفراق، انسحبتُ بعيدا ورأيته يمسح دمع اللحظة الأخيرة ليوقع بها قسوة الرحيل، حملتني قدماي عنوة لبهو الطائرة واستسلمت لمقعد غربة لا أدرك غيبها، وكفّي الراعشة تحتضن قصيدة أودعها آخر لحظة فقرأت سطورها:

إلى كل المحترقين[1]
أوَ ترحلينْ؟!
قلبي يُهَدْهِدُهُ الحنينْ..
فابقي قليلاً هاهنا..
ما زال في سمعي رنينْ..
أوَ ترحلينْ ؟!
ما زال سرّيَ غامضا في مقلتيكْ..
فَهَبي المرافئَ لحظةً.. أوْ..لحظتينْ..
وتذكّرِي عشْقَ النّوارسِ للسفينْ..

(1) للشاعر محمد الصالح الجزائري

مُذْ حَوَّلَ البحرُ المتيَّمَ نورساً،
حسِبَ الحبيبةَ بيْنَ جمْعِ الرّاكبينْ..
لوْ حرّكتْ ريحٌ شراعَ سفينةٍ، رجفَ الفؤادُ وظنَّها،
هيَ منْ أشارتْ باليدينْ..
عندَ الغروبِ ـ حبيبتي ـ تأتي السفنْ..
تمضي إلى الآتي ولكنْ.. لا تسافر مرتينْ!!
فهَبِي حبيبكِ فرصة،
يُفْضِي بها تخفي السنينْ!!
كمْ قصة تُروى.. ولكن
أجمل القصص التي فيها نكون العاشقيْنْ
والآن إنْ شئتِ ارحلي..
إن شئت وحدكِ دونَ ماضٍ أوْ حنينْ..
وتذكّري.. عند الغروبِ حبيبتي..
قدْ ترحلُ الدنيا عنِ الدنيا .. فنرحلُ أجمعينْ

* * *

٣

شيء واحد يجعل الحلم مستحيلا : إنه الخوف من الإخفاق

«باولو كويلو»

حلقت الطائرة وتغلغل فكري لكائن توهّج اسمه كنصل أدمى قلبي، إنّه ولدي، ليتني حملته على جناحي كحلم ورعيته بحنو أمومة، استسلمت لمشيئة الله تاركة تفاصيل من شأنها ابتلاعي في حومة الحسرات، تنبّهت حين قدّمت المضيفة وجبة الطعام فطلبت المزيد لجوعي المدمّر، وبدت ممشوقة كسنديانة تزهو بسموقها وهزمتني غيرة من قوامها المثاليّ التقاسيم، وكأنّها طيف حرير، ثمّ غفوت ولم أعبأ بمن حولي لحين أرخت الطائرة أجنحتها بالمدرج، ودلفت من أنبوب لأجواء "فبراير" الدافئة.

في صالة الاستقبال تطلعت بكلّ اتجاه، كتائه رماه الزمن في صحراء خاوية، وخفق قلبي حين رأيت سيدة تحمل يافطة كتب عليها "ماريا إلياس جرجس" صافحتها وتاهت نظراتها بين ردائي واسمي، أبرزت بطاقتي مبيّنة أنّ اسمي نصراني التشكيل وأنا مسلمة، ابتسمتْ بمرح خفيّ، اصطحبتني بسيارتها، أذهلتني معالم حداثة المدينة، وتلبّسني إرهاق السفر وشواغل الاستعداد له، طلبت مني المبيت في مركز التجميل لحين استئجار شقة.

اختبرتْ مهاراتي التجميليّة، واستلمتُ عملي بعد توقيع العقد براتب يعادل ألف دينار أردني، استكثرته وراودتني فكرة تقليله لكنّ حلم الثراء أسكتني، وخلت أنّي دحرجت الفقر عن عتباتي من أوسع الأبواب. طوّحتني الأماكن هنا وهناك للبحث عن شقة، وصُدمت من غلاء الأجور، وهمست لنفسي: حبيبتي عمّان تحتضن الفقير قبل الغني. بعد معاناة استأجرت غرفة بما يعادل خمسمئة دينار

وتكلفة المواصلات مئة دينار وما تبقّى بالكاد يكفي طعامي واحتياجاتي ومحادثة خالد ليليّا، وتوارى حلم الثراء وألقيت أمانيّ خلف غيمة قاتمة.

مع الأيام نسجت شباك صداقة مع روّاد المركز من عليّة القوم لعلي أستفيد من فرصة ثراء. قبلت دعوة مواطنة محجّبة في قصرها لأنّهم أقوام لا تحتمل العيش في شقق سكنيّة ولا بيوت اقتات الفقر زواياها، أذهلني القصر وأثاثه الخرافي وكأنّهم خلقوا للرفاه، استقبلتني مرتدية "الشورت" وقوامها يضجّ أنوثة صارخة، رنّتْ نداء للخادم لتقديم ضيافة ولم تستر جلدها المخملي، فذهلت "ليه نسيتي تتحجبي قدام الخادم" ضحكت من سذاجتي "إهو هندي" تدافعت حروفي عجبا "بس رجّال" ردّت كأنّها تنعتني بالغباء "ما تفهمين إهو هنديّ" احترت بالإجابة "يعني هندي مخصيّ متل العبد" قالت "لا، هندي تربّى هنه وتعودنا عليه"، أيقنت أنّ لديها خللا في إدراك الحرام والحلال.

دعيت لأعراس وأعياد ميلاد تقام في فنادق فخمة وكأنّ مراسم أعراسهم من أحلام ألف ليلة وليلة الأسطورية وكأنّهم أبادوا ذل الفقر واستبقوا غرور الرفاه، استفزت ولائمهم حرماني وما قدرت الاحتراز ومقاومة ذاكرة جوعي فأكلت بشراهة ليزيد وزني. أثار سخطي إنفاق الملايين على مظاهر باذخة لا مبرر لها لو أنفقت على مجاعات العرب لأتخموا أو لو وزّعت زكاتهم على فقراء العرب لتلاشى الفقر من أوطاننا ولهدأ ضمير "العُمرَيْن". إنّها سياسة التجويع لتزيد أعداد المنكسرين لسطوة الحكم.

دعتني مواطنة إماراتية لزيارة أبرز معلم في دبي "برج العرب" لشرب فنجان قهوة باستراحته البحرية الباذخة، تجوّلت فيه وخلت الزمن البهيّ ينثال داخل أحياز ملكوت المكان، أبوابه خشبيّة منقوشة برسوم خزفيّة تزيّنها حلقات بلوريّة، المرايا منقوشة بحرفيّة مميزة لتعكس إضاءة ثريّات تحاكي الإبداع الزخرفي

لديكورات باذخة، ناورتنا كائنات البحر من نافذة يلاطم موج البحر لمعان زجاجها، بعضها يعبر برهبة وأخرى تعبر غير عابئة، خلت ذاتي خارجة من حلم لا أجرؤ على رؤيته في منامي.

تجوّلت في مولات دبي المبرّدة واللّاهبة بالأسعار الخياليّة، وأذهلتني فاترينات العرض بما تفيض بأناقة الحرائر والأثواب المرصعة بأنواع الزخارف، تسمّرت أمام رداء مخمليّ أسود يزيّنه شال من الساتان الأحمر، فالمخمل يمنحني إحساسا بأنوثة طاغية، حاولت الابتعاد من جاذبيته ولكنّه أبى الابتعاد عن عينيّ وتحدّى شجاعتي الهاربة مني، فجعت لعبثيّة أسعار لن تطالها يدي لأنّ ثمنه يقارب الألفي دينار، انشغلت عنه لمراقبة أشياء أخرى لكنّ نظراتي تعود إليه عنوة أو خلسة لأسرق نظرة نهمة، فأغمضت عينيّ عن رؤى بعيدة المنال وآمال تبدو مستحيلة.

أعلنت بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية عن وجودها من خلال الأخبار وتأثرت دبي بها بقوة، لكونها تمثل مركزا اقتصاديا من أهمّ مراكز الثقل في السوق العالمي، وبات العالم على حافة نصل حادّ قد يُفقده توازنه الاقتصادي لنشوء أزمات اقتصاديّة تسحق الفقراء وتزيد عددهم، وتحول الأغنياء إلى حيتان تبتلع الأخضر واليابس، لم أبصر هالة نور تسيّجني في بوتقة أمان، وما أنا هنا إلا كذرة رمل والغربة قصمتْ صبري وتمخّضتْ عن صقيع جمّد أعماقي، وتأججتْ حرقة الندم في رحلة البحث عن بعضي لأفقد في عتمة المتاهات الضيقة ذاتي.

تلبّسني يقين أنّي بمتاهة ثراء لا تسمن ولا تغني من جوع، فالأثرياء لا يبوّلون على جراحنا ويرون أنّ العمالة الوافدة طبقة دونيّة آتية لخدمتهم ويستحيل أن تنال من ثرواتهم، وتمثّلت لي حقيقة، سأظل معدمة حتى لو كنت في بلاد ثراء وقد تبتلعني في غمرة ليل دامس، قلقت، وكي أتخطّى الانهيار لا بدّ من إنهاء مسيرة محفوفة بخطر التشرّد، نويت إنهاء عقدي والعودة لبلدي مع خيباتي كي لا أُصرف

عنوة "استغنينا عن خدماتك" لأغدو على قارعة طريق غربة وكربة، ففي بلدي ابن يحتل غلاوة قلبي وحبّ يملأ وجودي وبقايا أهل وصداقات تلبي احتياجي وتحملني إن تعثرت ظروفي المادية والإيوائية حتى تفرج عليّ.

كافأتني صاحبة المركز بزيارة للقرية العالمية، اختالت هنا حضارات شعوب العالم في بقعة صغيرة لتؤكّد أنَّ تفاعل الثقافات صنو للحضارة والتقدم، فلكلّ دولة بصمتها وملامحها بما يُعرض من منجزات شعوبها كأنّي عبرت لعواصمها مع أنّ هناك عواصم تعبرنا بغلوٍّ ودهشة، لم أستطع متابعة التجوال لاتساع القرية وارتفاع حرارة الجوّ والرطوبة وكأنّي غرقت بمياه مالحة، ألقيت نظرة عابرة على مدينة النخيل التي كانت قيد الإنشاء، وودّعت دبي بإطلالة على أبراج مهيبة تناطح السحب وتذهل الرؤى وعدتُ خاوية من الآمال وروح يسهل أن تطالها أنامل العابثين، مغتاظة من بلد أدخلني دروب الرفاه وضيّعني في دروب التعتير.

للأماكن سطوة نتماهى بها لإحكام عرى التمازج وترحالنا للمدن لأجل حياة قد تبدو لنا كريمة، لكنّي لم أحصد إلا السراب وتلمّست طريقي للأردن الذي أشعر فيه بالأمان ويعيش فيه الغني والفقير بكرامة رغم إفلاسي المزمن، توارت أمانيّ خلف تماوج ظلال هاربة لآفاق بعيدة، ركبت الطائرة صفر اليدين بعد ستة شهور قضيتها باتجاه بلدي من مدينة غارقة بالثراء، وحنيني يزداد للحبيب الذي تغلغل عشقه بدمي ففي الحنين لا فرق بين شهر أو شهرين أو قرنين؛ لأنّ كمّ الشوق يفوق فكرة الزمن.

لم أنم منذ يومين لأكسب مبلغا قبل العودة من بلد اغتال حلم ثرائي، احتجت للنوم لكنّ العجوز التي بقربي توقظني كثيرا: "بنتي إيمتى متوصل الطيارة عمّان ولّا نوصل بتنزل الطيّارة على سقف السيل واللا بمجمع رغدان"!

كززت على أسناني: "يا حجة بنوصل بعد ساعتين للمطار، اتركيني أنام لّا

تشوفي ضو اعرفي إنّا وصلنا، نامي يا حجة".

رددت باقتضاب: "ليه الطيارة ببتحرك كتير"!

باستياء: "هاي مطبات جويّة، وإن وقعت الطيّارة وأنت نايمة ما بتحسي بشي، اسكتي بدي أنام أو برميكي من الشباك".

: "كنت عند ابني المهندس، وأعطاني هدايا كتير لأخواته، وبفكّر لو وقعت الطيارة ببعتوا الهدايا لأولادي"!

تعكّر مزاجي لأسئلتها الغبية: "حجة، أنت خايفة عل الهدايا ومش خايفة من السمك ياكلك"؟

: "عمري تسعين سنة خلقت بالحرب الكبيرة وزهكت من العيشة وبدي الهدايا توصل لأولادي وحفادي، يا ريت تنادي على المضيفة المزيونة بدي أغلى ريحة وبدي كتير، (ناولتها ثلاثة دنانير) بدي اشتري بهدول ورجعيلي الباقي".

قالت المضيفة: "عجوز يوك، سعر الزجاجة مئة دولار".

ظلت تسأل كلّ ربع ساعة "وين صرنا؟" احترت كيف اسكتها؟ لمّا دخلنا الأجواء الأردنية بشّرتها، حين وصلنا قاعة القادمين كان بانتظارها الأبناء والحفدة، وتفجّر حزني لأنّ التيه ينتظرني، استسمحتها من غضباتي، ردت "مسامحاك يا بنتي".

نزلت فندقا وهاتفت خالدا، ردّ ولم يلحظ أنّ الرقم أردنيّا "المكالمة غالية أنا باتصل" قلت "لقيني بعد ساعة في حديقة الحسين" صُعق للمفاجأة ووصل كريح عاصف واحتضنني بلهفة وخلت نفسي سأذوب بين ذراعيه، كأنّ الدنيا أعطتني بهذا الحب كلّ ما افتقدته، وتوارينا خلف شجرة وارفة نتبادل لمسات خفيفة تكفينا شر الصعقات اللاهبة ونظراتنا تحكي حروف واهنة وأم كلثوم تغنينا "هو يقولي

وأنا أقولوا وخلصنا الكلام كله".

اقترحت بدافع العشق اللاهب ونفاد الصبر "شو رايك بزواج مسيار عشان يربطنا ولد" رفض "أنت أكرم من هيك لو سمحت ظروفي بآخر يوم من عمري رح نتجوز قدام كلّ الدنيا"، قضينا سحابة النهار وافترقنا لنلتقي بفترات موغلة بالتباعد، وتلاشى مع الزمن هوس عشقه واكتسى الفتور علاقة محكومة بالانتهاء فأرسلت له إهداء على صفحة التواصل الاجتماعي "إليك يا من غادرت حياتي بصمت وتركت في قلبي الألم والعذاب، أتمنى أن يكون ضميرك قرير العين هادئا، وأدعو لك أن تتألم ضعف عذابي في الحبّ لتشعر بأوجاعي ويتدفق دمعك كما أغرقت وسادتي، لن أنساك أبدا فأنت من علمني أن أحرق أوتار صوتي بكاء عليك لأضيء من نيرانها ليالي حياتي" وانسحب من حياتي رجل استثنائيّ مسكونة به وكان ملاذ سعادة لم تبارح تلافيف ذاكرتي.

* * *

٤

ما أشدّ حيرتي بين ما أريد وما أستطيع
«نجيب محفوظ»

عدت لعمتي آخر ملاذي فاستقبلتني في بيتها على ألّا أعود لأمّي لما بينهما من انتهاكات في المواقف المتعنّتة والمزاجيّة. وظلّ ولدي حرقة ذاتي أرقا نازفا يتوسّد أحلامي ويقلقني مصيره على مدّ المعاناة، منذ أن تركتْه لم تبارح ملامحه مخيّلتي وقلبي يضجّ بصدى نظراته وحركاته، أخاله هنا وهناك مثيرا أحزاني بأوج هنائي، وتدهمني حُرقة حين أرى أمّا تجرّ عربة طفلها، وتهاجمني حسرات حين أرقب واجهات المحال الصاخبة بأردية الأطفال الغالية الثمن، رفعتُ قضية لمقابلته وحكمت لي محكمة الأسرة بالمقابلة مرة أسبوعيّا لكنّي لم أجد بيتا يحتوينا.

رفضت أمّي استضافتي "أنا مش طايقتك، وما رح أتحمّل ابنك". قهرني تنديد عمتي خشية أن يتعلق أولادها به ويصبح حضوره مستحبا وملزما، ربما تقبّلت منطقها الأكثر واقعيّة، وخلت الدنيا كدينصور خرافي يبتلع أمانيّ بلا رحمة، اصطحبته لحديقة عامة وبكى لإحساسه بالاغتراب معي رافضا ملاعبته في الأرجوحة، فبكيت على حالي وحاله، عندما أوصلته لبيت أبيه تملّص مني متلهّفا لزوجة أبيه مناديا ماما ومستكينا لحضنها، رأيتها امرأة طيبة لا تقسو عليه كما يشاع عن زوجة الأب.

تحدّثت معها واستدرجتُ أحزاني في أجواء محبطة ونهرتُ دمعي كي لا ينهمر لكنّه تداعى نشيجا، ناولتني منديلا لأجفف دمعي ورنت إليّ بإشفاق وكأنّها ترجوني ترك بقية مناديل لتجفف دمعها على حال يحتاج إلى محامل صبر، وارتوت مناديلنا بدمع الهوان. سألتها عن حال سامر فأخبرتني أنّه يتحوّل لأسوأ حال متقلّب المزاج وتنخره العصبية، فشكرتها لأنّ ابني يشعر معها بالأمان، وأعطيته

دبة مسكونة ببراءة الطفولة ليلهو بها مع أخته ولتُزيّن سريره الصدئ، وما تيسّر من ملابس مستعملة وكومة حلوى يقتسمها مع أخته ففرحت أمّها لهذا النعيم المقزّم. غادرته وروحي تلوب بالأسى ولأعفي نفسي من مواجهة تعنّت أهله وأثناء رواحي رأيت العجوز الذي يدفع عربة الفول بالأزقّة مطقطقا بأوانٍ تنكيّة لإعلان وجوده مع الفول الشهيّ، تمنيت لو أنّ سامرا دفع عربة ترمس لرضيت بحياة الكفاف مع ابني.

لم يغادرني طيفه وانتابني إحساس غير متناهٍ للاحتياج، فهنا طفل يحتاجني وأنا احتاج الكثير، لكنّ حاله أفضل من حالي، لأنّ لديه مكانا يأويه وأسرة تمنحه الاستقرار، هنا يتناوش اللقمة مع أعمامه الصغار لكثرة الأنفس في بقعة ضيّقة وفقر مدقع، غادرتهم هائمة بين تدافع السيارات وعزف الأبواق وضجيج المارّة بعفوية الكلام وكأنّي تيسا يحاول الفرار من بين صخرتين شبه ملتصقتين وتنبّه لصلابة أوهت قرنيه، مع الأيام ألفني واعتاد مصافحة ضيفة يدعوها خالتي، أعلنت أمنياتي رحيلها كامتداد أجنحة طوتها الريح العاتية ودثر المدى وجودي، وصدق القائل "لا يجيد الصمت إلا من تجاوز حدود الصراخ ولا يفتنن بالضحك إلا من تجاوز حدود البكاء ولم يجد من يمسح دمعه".

قررت البحث عن فرصة عمل بمهنة لأثبت ذاتي وتتفق مع طموحي، لكنّ أمّي أصيبت بالتهاب الكُلى فاضطررت لرعايتها، فقاطعتني عمتي لعدم إيفائي بالوعد ولإشكاليات حياتي المعقدة مكتفية بمعاناتها الأسرية، سلّمت أمّي مكابرة لتواجدي معها على مضض لأنها بحاجة لرعايتي في فترة مرضها، وأقمت عندها ريثما تشفى، كانت تحدثني بصوت عابق الانشراح فيحدوني أمل باقتحام قلبها، أردت استغلال الموقف لمساعدتي في العثور على عمل في مجال السكرتاريا لعلاقاتها المتميّزة مع كبرى الشركات، رفضت، رجوتها أن لا تُعلم أحد أنّي ابنتها، وصدّعتني كلماتها "الحمار بيعرف إنك بنتي لأنك للأسف صورة عني" ثمّ طلبت

منها مالا كدين أردّه حينما يتيسّر حالي، لأفتح محلا للتجميل، رفضت "حلّي عني، إنتي رح ضلّي ملزقة بالفقر زي أبوكي".

لكنّ زوج أمّي شجّعني وعرّفني على موزّع لمواد التجميل وتوسّط لي عند صاحبة المحل التي تريد بيعه لتقسّط ثمنه، ووعد تزويدي بالبضاعة، وكان شابا مصريّا لبقا ومتعاونا معي كرامة لزوج أمي، أوصلني بسيارته "التاكسي" للمحل، توثقت علاقتنا وأخبرني أنّه يملك التاكسي مناصفة مع سائق أردني، أحببت كرمه حين دعاني لتناول الغداء في أشهر مطاعم عمان الغربية، وخبّرني أنّ زوج أمّي تبرّع بجزء من ثمن المحل سرّا ولكنّ أمّي علمت بالصدفة فاقتنصت المبلغ لنفسها، وخوفا من المشاكل ولرغبته بالمساعدة دفع قسط المحل الأول وأظهر رغبة صادقة بالزواج مني، وزيّن لي الاستقرار الذي أنشده.

دعاني لرؤية شقته التي ستكون بيت الزوجية في جبل عمان، رفضت الفكرة وشاورت أمي وتوقّعتُ أن ترفض كأيّ أمّ تحافظ على شرف ابنتها، رمقتني بتحدٍ واستهزاء "روحي ما أنت مطلقة ودايرة على حلّ شعرك وما في حدا بلمك، اعملي اللي بريحك" حرقتني كلماتها وشعرت بغصة سدّت عليّ منافذ القول، تساءلت هل الشقاء وعد يصم جبيني كوصمة عابد! وبعد برهة صمت خلتها دهرا، قلت "الله يسامحك".

اكتست ملامحها بالسخرية "بتفكري حالك مريم المجدلية اللي كانت عاهرة وبعدين صارت قديسة أو عائشة اللي اتهموها الشيعة بشرفها" صرخت "أنت ما بتفهمي شي وما تحكي عن الطاهرات" وأردت الإطباق على رقبتها لكنّي انسحبتُ مختنقة من شهقات الأسى وكي لا تتساهل بقذف المحصنات، والتزمت صمتا مرتجفا لتهدأ نيراني. وشدّني حنين لعمتي التي كسرتني قطيعتها القاسية، قررت قبول الزواج من المصري. بعد أيام وبينما كنت أتسوّق في جبل الحسين التقيت صدفة بإحدى معارف أمي في مجمّع مكسيم التجاري وخبّرتني أنّ سيدة تبحث

عني وتريد مقابلتي للضرورة وأعطتني عنوانها للذهاب إليها فورا.

التقيت بها وحذرتني من المصري الذي اعتاد إيهام البنات بثرائه وهو يلعب القمار ويعمل على التاكسي بالضمان، أدخلتني غرفته المستأجرة في بيتها ورأيت زجاجات الخمر تحت سريره، صدمت للمفاجأة وعنّفت ذاتي، هددته بالشرطة إن اتصل بي واختفى من حياتي وتلاشى مشروع محل التجميل لعدم قدرتي الماليّة، وسألت نفسي: هل محتوم عليّ أن يُخطأ فهمي وتمارس عليّ بذاءات الرجال! ومما حزّ بنفسي حين علمت أنّ أمّي حثّته ليغويني وأصبح زوجة لرجل تعلم بانحرافه، عاتبتها وفاجأني جوابها "بتفكري حالك خضرة الشريفة، أنا ما بعرف مع مين بتسهري وشو تعملي بالنوادي الليلة، وهاي آخرتك" فقلت لها "حرام عليكي ما معي آكل حتى أسهر بنوادي وما بعمل حرام".

زاد حقدي وركنت للسكينة وتجنّبت محادثتها درءا لتفاقم الموقف، لم تدرك معنى كوني مؤمنة لا تقترف الكبائر، وقررت المكوث لديها ريثما أبحث عن غرفة تأويني، ومادت بي الأرض كأنّي أقف بالفراغ وما بدا متماسكاً راح يتشظى وينهار فتاتاً! فما يحدث لم يكن مترابطاً مقنعاً لمنطق الحياة! وانتابتني هواجس الردّة فدعوت الله الكلّي القدرة اللطف بي وتثبيتي في حمئة هذا الدين وحمايتي من شرّ الناس.

قصدت المرأة التي أنقذتني من براثن المصري لتؤجّرني غرفة، فأصرّت أن أسكن معها لأنّها تحبّني كابنتها فبقيت لديها أسبوعا وصارحتني أنّها تريدني زوجة لابنها الذي لا يتحمل مسؤولية فاعتذرت "قلبي من الحامض لاوي وما بهرب من تحت الدلف لتحت المزراب". خرجتُ من بيتها لتحتويني ظلمة ليل وضوء قمر شفيف على دروب خاوية، والأضواء الخافتة تهوّم فوق مساحات نائية، لا صوت ولا همس إلا صوت لهاثي وذاكرة تبحث عن مكان يأويني بلا أجر ولا منّة، حملت قدماي معاناتي وانتهك جوع معدتي ولعنات لضياعي وفقري.

اضطربت نفسيا لحدّ الاكتئاب فالتجأت لعائلة أبو رامز القبطية من أصدقاء عمتي والذين عدّوا إسلامي نزوة عابرة واحتوائي أمر محتوم حتى تنجلي هذه الضائقة، وأقمت في بيت مزرعتهم، اتصل أبو رامز للاطمئنان فشكوت قسوة البرد فأرسل لي غطاء صوفيّا مع هاني شماس الكنيسة الثلاثيني الذي تملّى بفضول وجهي المتعب وجرّنا الحديث لمسائل دينيّة وقضايا القمع وعلاقات المجتمع المزيفة، وبدا انفعاله واضحا من لهجته وانحرار عينية ورعشة أصابعه لّما تحدّث عن زميل العمل المسلم الذي يؤدي صلواته في الجامع ومع ذلك يختلس من أموال الشركة بأساليب ملتوية وكأنّ تدينه تغطية لانحرافه، بيّنت له أنّ أنفس بعض الناس مريضة لكنّ نهج الإسلام وشرعه متكامل وناقشته بخفايا إنجيله بأسلوب وفكر أحمد ديدات.

تواصلنا هاتفيّا وذهلت لقوة التجاذب بيننا، وبيّن استعداده لتلبية احتياجاتي وتقديم أيّ تضحية لإرضائي، كانت نظراته مفعمة بغرام اكتسحني، طلبني للزواج وكنت في حالة ضيق قد أقبل بأي مخرج لتراكمات قسوة زمني، وراودتني فكرة التمسك بإسلامي والزواج منه مدنيا، ولم يطالبني صراحة بالردّة عن ديني ليخفي رغبات خفيّة حول هذا الموضوع، وجدت في هاني الخلق الكريم ومصداقية بأعلى درجاتها، كريم العطاء دافق الحنان، وكان سرّ تمسّكه بي لأنه وجد في ماريا نقاء وصدقا افتقده عند حبيبته التي خانته مع صديقه، تفانى بحبّه الذي لم ينطفئ وأحببت عظمة حبّه لي وقدّرت مشاعره وأخلاقه، وافقت على عقد قراني عليه بعد إشهار إسلامه بساعة لكنّه رفض، وابتعدت عن الرجل العاشق وظلت علاقة الأمان والصداقة قائمة ألجأ إليه لاحتياجي، تساءلت، هل لأنّي اخترت الطريق السليم يقدر لي الزواج من المسلم الغلط في أسوأ الظروف.

***

٥

لا أقاوم العالم، أقاوم قوة أكبر أقاوم تعجبي من العالم

«إميل سيوران»

لمع خاتمي بين أصابع ترتجف خوفا على آخر مدخراتي الدنيوية، أأبيعه للمبيت في فندق أو أبحث عن من يتحمل شقوة ضياعي؟ جلست على الرصيف منكسرة أنتظر أملا يشقُّ الرؤى وموزّعة الذات بين ماضٍ أليف واحتمالات مستقبل غامض، ألجمتني وحشة الشارع، أأصدع صمته وأتسلق عمود كهرباء لأعيد قهقهات نيرون اللئيمة حين أحرق روما أو أنثر يأسي على جذوته لتقذف هواجسي شررا يُفقد عقلي!

في لحظة منفلتة من عقال الوهن تحدّتني ذاكرة خرقاء لأسترجع صمودي وأبتهل لربّي "أنا أَمَتُكَ التي طوّحها الضياع وتلقفها الخواء، أفرغ عليّ صبرا يعينني على معاناتي وامنحني جسارة تحرر خوفي وأنر قلبي برحمة تعيد إليّ رشدي" غمرتني الطمأنينة، فلجأت إلي صديقة للمبيت عندها وأخبرتني عن توفر فرص عمل مناسبةٍ في العقبة براتب جيد، فأجريت اتصالاتي وعثرت على عمل في فندق خمس نجوم، حملت حقيبتي لأتجه للمنفذ البحري الوحيد للأردن على شاطئ البحر الأحمر، كان الطقس دافئا مثل قلب الحبيب، فاستلمت عملي وراتب مقدم.

استأجرت شقة صغيرة لها شرفة مؤطّرة بواجهة زجاجية زمرّديّة اللون، ونمت ليلتها في حضن الاستقرار، استيقظت قبل الفجر لأغدو إلى خلاء متوّهج بالنقاء عبر جسر خشبي نحو مياه البحر الرقراقة لأرقب انبلاج فجر رهيف كلحظة احتضار واهنة، لتعانق نظراتي زرقة البحر الداكنة، وأطرب لصوت تكسّر أمواج تفيض بنثرات لجين في صفحته وهي تطارح الأعماق بأسراره، انتظرت شروق الشمس لتحبو بالأفق ناشرة خيوطها النحاسية وتلملم بقايا عتمة الليل، وتمنيت

أن تشرق شمس قلبي ويدوم استقراري المكاني والنفسي.

تنوّعت أشكال عملي في الفندق حسب ما تقتضيه حاجته، أحيانا مشرفة على ترتيب الغرف أو طاهية أو في المحاسبة التي أتقنتها في دورة السكرتاريا، ناورني موظف الاستقبال "فادي" باستلطافه فتجاهلته لأنّي رفعت أعتى الأسوار بيني وبين الرجال وأضحت مشاعري صلبة الاختراق، وكلّما تجاهلته ازداد تعلّقا بي معتقدا أنّي عصيّة التجاوب، ولم يدرِ أنّي منخولة بثقوب الهزيمة والتداعي من الرجال، لكنّ نظراته استباحت مشاعري، وجذبني رقيّ تعامله ووسامته، أومأت لي نفسي أن أتجاوب بقدر محدود لقناعتي أنّ مشاعر الحبّ تعطي المهزوم رشقة فرح ودفقة أمل.

طلب لقاء في حديقة عامة فطاوعته، وقدّم لي هدية رمزية تعبّر عن حبّه ويُفترض بي الانصهار مع خلجاته، لم أستجب لأنّ عقلي تسيطر عليه فكرة البيت والزوج الذي يكفي حاجاتي بيسر، أمّا الحبّ قد تأتي به الأيام، وهذا حقّ طبيعي لكلّ امرأة. لمّح أنّه يرغب بقضاء لحظات متعة من خلال التماس الجسدي، صددته، لم يكن الزواج هدفه ويراه قاتلا للحبّ ومسؤولية لا يتحمّلها، صارحته أنّي لست محطّةً يترجّل منها عند وصوله لامرأة أخرى، وأنا لا أريد متعة خائبة، فهم مقصدي وانسحب مولّيا لغاياته غير المشروعة، تلاشت أمانيّ وتعجّبت لرجال يطلبون نشوة الحبّ الحرام ويتمرّدون على الزواج الحلال هروبا من المسؤولية.

طحنتني دوّامة عمل فصل الشتاء المرهق، لتدافع السيّاح الذين يرومون شاطئا مبهر الجمال والنظافة وبحرا هادئا وشمسا ناعمة لا تلهب جلدهم، خلدت للهدوء العاطفي الذي أرخى عليّ مللا وكأنّي اعتدت العواصف النفسيّة والعاطفيّة، وجرّتني قدماي إلى ساحة السارية المزهوّة بعلم ثورة الشريف الحسين بن علي المجيدة، وعند السارية التقيت "وليد" مشرف حفلات لأحد الفنادق وتبادلنا أحاديث عن معاناة العمل، وصرنا نلتقي كغريبين بعد استراحة الغداء

يوميا عند سارية العلم دون موعد مسبق، أيقنت بكرمه حين دعاني لرحلة في البحر الأحمر.

ركبنا قاربا زجاجيّ القاع لرؤية النباتات المرجانية، والأحياء المتنوعة والأسماك الملوّنة النادرة التي تزخر بها الأعماق، ظهرت كائنات باحثة عن طعامها كالسلطعون وقناديل البحر، تابعنا لميناء البواخر السياحية الحديثة التقنية، استرحنا تحت مظلة بالمقاهي المنتشرة على طول الشاطئ الشعبي لنأكل شاندويشات الفلافل الشهيّة، وسرحت بخيالي للزمن البعيد لأتخيل العقبة التي سمّيت "أيلة" في نص جلجاميش وكانت من أهمّ مدن النبطيين ومعبرا للقوافل التجاريّة من الجزيرة العربية نحو مصر وبلاد الشام، واندثرت أهميتها لحقبة طويلة لكنّها استعادت مكانتها التاريخية لتلعب اليوم دوراً في اقتصاد المنطقة.

بعد أسبوع رافقته لخليج تالابي وسرايا العقبة وواحة آيلا التي تضم منتجعات وبحيرة صناعية، اقتحمتنا الأحلام لنتساءل، ليتنا نمتلك شاليها في هذه المنتجعات، وقهرتنا سطوة فقرنا، شاهدنا أفضل المواقع العالمية لممارسة التزلج المائي، وأخذتنا شهوة العبث الطفولي فأخذنا نتسابق في الأرض العراء ونلاحق صهيل الدّماء الصاخبة في شراييننا الفتيّة وضحكاتنا كفقاعات ماسيّة، قهقهت لمّا ناولني مفتاحا صدئا ساخرا: إنّه مفتاح شقّته التي ينوي شراءها بالأبراج السكنيّة في واجهة الميناء.

لأنّ امتلاك مفتاح شقة الحلم وعد لحلم قادم، لا ندري متى يتحقق، وعرض عليّ حلم يقظة آخر لاصطحابي لواجهة اليخوت الرئيسية في مرسى زايد عند بوابة العقبة لنبحر للأعماق على يخته القابع هناك، دهشت لخفة ظله قال "الحلم حقنا" فتذكرت مفتاح بيت جدتي في الناصرة التي حرصت عليه كشيء ثمين، وضاعت فلسطين لآجال مبهمة المدى وظل المفتاح بحوزتها واحتفظت به عمتي كذكرى لوطن تاه على خارطة العالم. همت باللامتناهيات وتهت في دوامة العمل في مدينة

مُرتجّة بأسرارها، توطّنت خيبات متوالية لترسخ أحداث نزقة في عملي لا أحتملها.

هاتفني وليد معتذرا عن اللقاء اليومي بسبب تركه لعمله وللبحث عن عمل في الفنادق المنتشرة في المنطقة، فاتجهت بمفردي للتسوق في المنطقة التجارية الحرة التي فيها خدمات ذات مواصفات عالمية للجودة، فالأسواق هنا تكتظ بسلع متنوعة لذا يتهافت الأردنيون على زيارة العقبة خلال الأعياد والإجازات للتسوق ولقضاء عطلة نهاية الأسبوع في المنتجعات والشواطئ. في الأسبوع التالي التقيته عند السارية وزرنا المواقع الأثرية التي تدل على عراقتها مثل قلعة العقبة وأقدم كنيسة في العالم، وتجوّلنا في بعض المنشآت ومركز خدمات النقل، تمشينا عند المسطحات المائية التي تستقطب أنواعا من الطيور النادرة.

انقطع وليد عن الساحة لمدة شهر فتقصّيت عنه للاطمئنان عليه وقد ألفت صداقته، فعلمت أنّه مشغول بزواجه من سائحة برتغاليّة آملا أن تحقق له حلم الهجرة، فعددت هذا شأنه وتمنيت له السعادة، وبعد شهور التقينا عند الساريّة وكأننا على موعد وأخبرني أنّ زوجته ملّت زواجها وعدته علاقة عابرة وهربت حبلى بابنه لوطنها وما به عسير التحمّل ومعاناة تنخر الذاكرة.

في نهاية موسم السياحة أرادت إدارة الفنادق تكريم عمالها برحلة لوادي رم الذي يلقّب بوادي القمر، وقد تشكّل من ناطحات سحاب طبيعية مهيبة وسمّاها لورنس العرب ذات الأصداء اللامتناهية، لأنّ يد الإنسان العابثة وقوّته التدميرية تغافلتها، استأجرنا سيارة وصعدنا لأعلى جسر حجري بالوادي، ومررنا في طريق أعمدة الحكمة السبعة ومواقع سياحية مهمّة، ثمّ حلّقنا بمنطاد هواء عند غروب قرمزي على منحدرات صخريّة مذهلة مع انعكاسات اللون الأحمر على طرقاته ووديانه، رحّب بنا أهل الوادي البدو الكرماء في خيمة واستمتعنا بسهرة على إيقاع موسيقى القِربْ وأكلنا وجبة تقليدية تطبخ على نار الحطب.

* * *

٦

كم هم سعداء الذين يتخلصون من الأغلال التي ترسخ بها حياتهم
«جلال الدين الرومي»

كان مردود العمل في العقبة جيد لكنّي سئمت مشقة العمل وقيظ الصيف، لم تكن الغربة منتهى طموحي وتلبّسني حنين إلى عمان الحبيبة فقررت العودة، وبقيت شهرين أتنقل بين الفنادق حتى تلاشت مدخراتي وبحثت عمن يحتمل عثراتي، فأومضت شعلة التذكر باسم عرفته من سبل الحياة المتعثرة "فضة"، حملتني قدماي في دروب ضيّقة حفّرتها أقدام متزاحمة في "حيّ الطفايلة" والتقيت قي منارة الفقر وجوها كالحة، وطرقت باب كوخ حجري الجُدران تنكيّ السقف، استقبلتني ونظراتها تستفسر سبب الزيارة، وطلبتُ منها قبول ضيافتي لأيّام حتى أتدبّر أمري.

رحّبت بي أمّ فضة بفرح يخفي دلالات مكر وكأنّها عثرت على منحة سخيّة، فلم أعبأ بخفاياها وأغرقني النوم في ضجيج ذاتي، لكنّ بعوضة وتّرتني بطنينها فطاردتُ بنظراتي رقصها البهلوانيّ، وأخذت معاناتي تتناسل من ثنايا ذاكرتي كموج يجرف راحتي، حدّقت بي عيون الظلام لتذكّرني بتعنيف عمتي التي أكّدت أنّ ابتهالاتي لن تجدي نفعا لأنّي أردت العزلة باختيار هذا الدين وكأنّي مسخ عليه أن يحيا في سراديب تحيلني لجثة نخرة.

في الصباح قدمت لي فضة كوب حليب، وتأمّلت شعرها المسترسل ودندشاته اللامعة، ويضفي عليها مسحة جماليّة عند انعكاس ضوء الشمس عليه، وأقراط أنفها وأذنيها تحاكي تمرّدا غجريا، ابتسمت لي أمّها "سلوم" المرأة المكتنزة وبمعصمها رقن مبصوم وفي ذقنها نقش منظوم، ثوبها مكشكش، وضفيرتها الصهباء تنسدل على متن خاصرتها، التي حيّرتني طبيعة عملها إذ تخرج كلّ صباح لكنّ عودتها لا يحكمها انتظام، تجلب ملابس مستعملة وأشياء أخرى لبيعها لنسوة

الحيّ وتتاجر بكل ما يقع تحت يديها وتتقنّع بأشكال المماراة والتمويه والإقناع لبيع مقتنياتها، وتُحضر يوم الجمعة لحما مشويّا بكميّات وفيرة.

كانت سلّوم توزّع نظراتها بحنوّ على جسدي وتدعوني بجراءة للتزيّن مثل فضة وترك الحجاب، وتلمّح ببراءة مقنّعة أنّ جمالي قد يدرّ عليّ مالا، وتّرني فضول "مين أنتو!" ردّت "إحنّا من نَوَر العراق" هدأت وتملّكني فضول لمعرفة أسلوب معيشتهم فحكت أنّهم كانوا يفضّلون حياة الخيمة والتجوّل مع أسرهم في عربة مزيّنة تجرها الخيل في البلاد الواسعة ويُشعلون فيها نارا للطبخ، رافضين قيود المدنيّة ولا يواكبون التحضّر والرفاهية لأنّهم يعشقون التنقل والسلام، مكتفين بسقف السماء ومستدفئين بالنار، ولّما اجتاحهم الرقيّ سكنوا بيوتا أسقفها تنكيّة.

كانت ترتدي فضة ثوبا فضفاضا مزركشا فسألتها "ليه ما تلبسي مكشكش أحلى" أخفت وجهها خجلا "لّما أتجوز" وكانت الإجابة مدخلا للسؤال عن طقوس الزواج لديهم، فسردت عن الزواج الذي يكون بعمر مبكّر لتوثيق لحمة التوافق ويتمّ حين يُقدّم الغجري لفتاته لفّة عنقه فإن لفّتها حول خصرها فهذا يعني قبولا، فيتصافحان وتسكب قطرات دم إبهاميهما على كسرة خبز، يأكل كلّ منهما القطعة التي فيها دم الآخر، وتكسّر بقايا الرغيف على رأسيهما ويرقصان، يسمّى زواجهما معقود الدم والخبز. إن اغتصب النوري فتاة فهو ملزم أن يتزوجها ولا تتزوج غيره.

أدهشهما تكرار تجربة زواجي لأنّ الطلاق لديهم نادر جدا، والمرأة مستعبدة للرجل لأنّها تعمل أيّ عمل لتحصّل له المال كبيع الزهور وقراءة الكفّ وممارسة الطبابة الشعبيّة والتسوّل. اقتحمت أمّ فضة الحوار لتحكي عن ولادة المرأة التي تعزل في خيمة منفصلة أو تحت شجرة لمدة شهرين، وتعدّ غير طاهرة والأبّ لا يلمس ولده إلا بعد تعميده كالنصارى، لاحظت فضة حرصي على بقية فلوسي، استاءت "نحنّا ما عنا أمانة لكن عار علينا سرقة الصديق" وحكت أنّها ستكون

ثرية حين ترث مصاغ أمّها لأنّها دمها غجري خالص وأختها هلالة لن ترث لأنّ والدها المتوفى عربي، تأسيت لأنّ أمّي ترفضني ولن تترك لي شيئا.

كان حديث السمر وسيلتنا لقتل الوقت، وطلبت مني سلوم قراءة كفي وافقت على سبيل التسلية، أمسكته وخلت طاقتها الروحية جوفاء مقعّرة وهي تحكي عن غيبيّات مخيفة، وتؤكّد أنّ الشقاء ملازم لي ولا بارقة لفرج مرتقب لأنّ خطوط كفّي عميقة غير متقاطعة، واقترحتْ عليّ عمل حجاب لإعادة ابني لوصايتي، رفضتُ هرطقتها واستعذت من شيطانها لإيماني أنّ الغيب مختبئ خلف الأقدار وبيد علّام الغيوب والسحر شرك، فاعترتها خيبة وتابعت ثرثرة مأثورها وادعت أنّ لها قدرة التأثير على الأرواح الشيطانيّة (نيفاشا يوفاشا) التي تسيطر على الأرواح الطيبة، رفضت خزعبلات عقيدة فاسدة وابتهلت لله تفريج كُربي.

حملنا الحديث لحكايا الموت، وحكيت عن موت أبي والذي ما زال كفي يعبق برائحة تراب نثرته على جثمانه وأسمع صدى شهقاتي عليه، فتذكّرت فضّة والدها وحدّثتني عن طقس دفن مثير للغرابة، إذ ألبسوه أفضل ملابسه وحرسوه لثلاثة أيام خوفا من استيلاء الأرواح عليه، لأنّهم يعتقدون بتناسخ الأرواح، ثمّ حرقوه مع خيمته وممتلكاته الخفيفة ودفنوا رماده، وفي كلّ ربيع يقيمون تأبينا له برعاية قديس ويعلّقون أجزاء القربان على الأشجار لتأتي أرواح طيبة فتأكله ليزيد الخير، قلت لها "أبوكي مات لمّا رجع من الحج شو دينكم؟" وضّحت أنّهم يتّبعون من أيّ ديانة ما يوافق مصلحتهم وطباعهم، وأدركت إنّ رحلة الحج تتوافق مع حبّهم للترحال، والازدحام يهيئ جوّ السرقة والتسول.

أخرجتنا أمّ فضة من جوّ الكآبة وارتجلت عزفا بلا نوت موسيقيّة وغنّت بصوت خشن من أغاني خيمات السمر الغجري، ورقصت فضة "الفلامنكو" برشاقة على إيقاع آلة "السنطير" العراقية الصنع المطهّمة بأصداف، لها حوامل دقيقة الأوتار ونغمات ثقيلة مُفرِدَة ترسلها لأبعد مدى، عزفتْ بالمطرقتين لترنّ

السجّاحات، سرحت ذاكرتي خلف زمن حبيب لأحنّ لعزف كمان أبي الذي ردد "الإحساس باللحن أهمّ من عزفه"، هي ذكريات الطفولة تعرفني وأرغب بالترحال معها. رقصت فضة وعلت تأوهاتها كصرخة يفجّرها اللهيب، وعيناها تحكي حزن العاشقين كأنّها كارمن إحدى بطلات "بروسبير"، وقهقاتها دافئة تهدهد انكسار تلويحها على صدى هسيس أساورها ودندشاتها، انسابت يداها بأماكن مثيرة من جسدها لتتماهى مشاعر متخمة بالإثارة، أغرتني الأنغام ورقصت على إيقاع صاخب، رفضتُ فكرة سلوم التي دعتني للعيش والانخراط معهم بلا قيود مكانيّة في حياة يلفها الغموض والترحال.

حكت سلوم عن ما كتبوه على جدران الذاكرة واللاوعي ومأثور الأجداد وعن سرّ تجوالهم وحبّهم للتيه الغجري لأنّ جدّهم الأول (كين) قتل شقيقه فعاقبه الله وجعله هائما في الأرض مع ذريته ليتسكعوا بمتاهة الدنيا وتسوّل الطعام والاحتيال والسرقة، وبيّنت أنّ غالبية نور العراق فقراء، كانوا يتمتّعون بالحماية من الاضطهاد من قبل بعض الأنظمة السياسية مقابل تقديم الراقصات والعاهرات لكنّ الميليشيات الدينية نقمت على شبابهم الغارق بالفساد واللهو. رأيتهم يعيشون ضمن قانون يجعل القمامة والفساد وليمة يتنافس عليها معدمي البشر والكلاب.

علمت من خلال حديثهما مبررات اضطهادهم، وكراهية الشعوب لهم وترحيلهم قسرا بتهمة الانغلاق على النفس لانعدام أمانتهم، والنازيون أكثر الشعوب عداوة لهم، إذ تعرّضوا لأقسى إبادة عرقية في الحرب العالمية الثانية، ألزموا السخرة واعتُقلوا بالمعسكرات واستخدموا كمادة للتجارب، وسجنوا في زرائب معسكر "أوشفيتز" وصنّفوا بأدنى مرتبة ترتيب للعرق البشري، حيّرني سؤال، أيوجد افتراءات تاريخيّة على محرقة الهولوكست الهتلريّة؟ أكانت للغجر أم لليهود أم للاثنين معا؟ وهذه المحرقة حفّزت يهود أوروبا بأساليب ملتوية لتنفيذ وعد بلفور ومنحهم فلسطين وطنا قوميا وتكلّفت ألمانيا تعويضا لليهود عن المحرقة.

على طبليّة العشاء الصاخبة بالشواء أدهشني عشق فضّة لأدب "كورساف" الذي أبدع "شهرزاد" وأدركت من حديثها أنّ للغجر حضور في ذاكرة الشعوب كأساطير ومأثورات وقد حافظوا على هويتهم الغجرية من خلال حكي الأجداد مع أنّ لغتهم ضعفت بتفرقهم وتأثرهم بألسنة قوميات تعايشوا معها، ولم يعنيهم إلّا تعلّم مبادئ القراءة لقراءة المستندات وللتعامل مع الاتفاقيات البيروقراطية في ترحالهم. وألهبتني ضحكة مكتومة حين استلب النوم سلوم فبدت في وضعية نومها كضفدع ارتد على ظهره، أدركت فضة سرّ ضحكي، فردّت ساخرة إنّها تنام مباعدة بين الفخذين لقناعتها أنها ستسهّل لروح والدي مضاجعتها في الحلم وتستيقظ منتشية بعلاقة سرّية مع ذاتها، وختمت السهرة حين داعبت أصابعها قيثارة ووتر نمت حنجرتها بأغنية تراثيّة:

"الغجر حياتهم في طول الطرقات

وفي عمق أحد الشوارع نأخذ الموت

هكذا هي حياتنا فقراء ولكننا سعداء

ثراؤنا أن نبقى جالسين حول النار

لسماع عزف كمان"

تحمّلت سلوم ضيافتي أسبوعين حاولت إقناعي التسول معها، رفضت بشدّة، لكنّها ساعدتني حسب ما تقتضيه مصلحتها وتسولت باسمي وسردت لمعارفها معاناتي، كانت تتحكّم ببكائها بخفوت صابرة وحياء تقيّة لتستدر عطف الناس لإغداق الصدقة، توقّعت أن تهبني كلّ ما جمعت لكنّها اقتسمته معي، واجهتها معترضة "ليه تتسولي باسمي! واللي طلبته دين من معارفك" تثاقلتْ بمكرٍ معاتبة "كشلك يا قاروطة ليه زعلانة بدنا نعيش".

***

٧

أجمل ما يحدث لنا لا نعثر عليه بل نتعثر به
«أحلام مستغانمي»

لقد اقترفتْ سلّوم خديعة بحقي لتشويه صورتي وتسببت لي بالإحراج، وعلمت أنّ الذي تصدّق بأكبر مبلغ من أثرياء الحي "أبو العبد الشامي" فذهبت إليه لتوضيح الموقف، التقيت برجل أضفى الخريف وقارا على سيماه ووشى هامته بنفس أبيّة، وجهه مزدان بلحية كثّة صهباء لفّته بسكينة صوفي، وأرخى رخاء هندامه عليه بهاء، فسرت هيبته بأوصالي واختلج فؤادي لمرآه.

ابتدرني ببشاشة، فأخبّرته بفعل "سلوم" التي استغلّت كرمه لتتكسب باسمي، علّق "هادا طبع نوريّة بتشحد مشاوي كل جمعة من المنتزه" وهدّتني غصّة "المعونة اللي طلبتها دين رح أرده لمّا تفرج وأنا ما برضى أكون عالة على حدا" سبر غوري وأدرك اعتزازي بكرامتي، أخبرته بظروفي القاسية وطلبت منه أن يساعدني بالتوسط لدى معارفه لتأمين عمل لي، فساعدني، عملت في مؤسسة تجارية وتتبع أخباري ليطمئنّ عليّ، وكانت مساعدته كخشبة نجاة في بحر هائج، وبعد مدّة أنهت المؤسسة عقدي، لأنّي زائدة عن حاجتهم، وطاردني العوز ردحاً من الزمن والحال لا يستقيم بلا مال، وعليّ الحرص عليه وعدم التفريط به.

داخلتني رغبة خفيّة لرؤية الشامي وكأنّي أبحث عن نفحة أبوية حانية تربّت على كتفي، التقيت به وصبّرني بكلمات حنونة، لكنّ لمعان عينيه يلتهب بقبس ناري لا يسهل إخماده، وأوحت نظراته بشغف بريء لامرأة له منها وطر، باغتني حين عرض عليّ الزواج، توتّرت "حرام تظلم مرتك وتتجوز عليها" فأكّد أنّ زوجته لن تغضب لأنّها مطمئنة على نفسها أولادها ومتفهّمة لرغباته وترضى بالواقع، وطرح تساؤلا "ليه الزوجة بتفكّر زوجها ملكية خاصّة وبتحكي أنا زيّ الفريك ما

بقبل شريك" حاورني طويلا ليصوّب قناعتي ويبّن لي فكرا إسلاميّا أجهله.

فهمت منه أنّ تعدد الزوجات العادل حلّ لمشكلات المرأة، ولو كان ظلما لما أباحه الله لأنّ الله لا يظلم عباده، وليس خيانة كما يدّعي الذين يطرحون ثقافة غربيّة أو ثقافة سينما، وإباحته فيها تكريم للمرأة عامة، لأنّه يحلّ مشكلات المجتمع المعقدة التي تفاقمت بعد اقتحام المرأة كافة مجالات العمل، وأدّت لخلق مشاكل اجتماعية كانتشار البطالة وعزوف الشباب عن الزواج لعجزهم عن تحقيق مقومات الأسرة مما زاد العنوسة وانتشار البغاء، وخوف النساء من تعدد الزوجات للظلم الذي يقع عليهنّ ممن لا يتقي الله، فهناك من يهجر الزوجة ويفضل زوجة أخرى فيؤذي مشاعرها ويظلمها مع أولادها مما أدّى لرفع نسبة الطلاق، لذلك رفض المجتمع التعدد ومُنع قانونيّا في بعض الدول الإسلامية.

أقسم أنّه لن يظلم ولن يسمح لأيّ زوجة أن تغتصب حق الثانية أو تكيد لها أو تدفعه لإيذائها، ومن تفعل ذلك تكون آثمة، وحالتي المستعصية قد تحلّ بالزواج من رجل تقيّ يمتلك القوامة ولديه المقدرة على العدل بين زوجتين، انسحب قبل خروجي من ربكتي ليعطيني فرصة للتفكير، ثمّ أخبرته رفضي اعترافا بفضل زوجته التي أكرمتني في بيتها ولرغبة خفيّة تلزمني عدم تكرار تجربة "أبو النمر" التي قبلتها تحت ظروف قسريّة مع أنّ الفرق بينهما شاسع، لم يغضب بل أكرمني بمنحة حققت لي أمنية خلتها مستحيلة إذ تبرّع بنفقات العُمرة لتثبيتي في حمئة الإسلام.

ودّعني "ما تخافي لو إلك نصيب بشي رح تاخديه" رأيته رجلا استثنائيّا ينهي الأزمات بترفّع وبديهة، وقدّرت فضله وتربّع بأريحيّة على شغافِ قلبِي لأنّه من الذين نحبّهم ولا نقاربهم لأنّهم في البعد أرقى، حثّني على العمل بمهنة تناسب قدراتي لأنّ اليد الفارغة مفسدة، نُصحه منحني إدراكا لذاتي وتذكرت قولا "عاند الدنيا وابتسم فبعد الليل فجر ينبثق لا تقل حظي قليل إنّما هذا قدر ربي". أثناء تحضيري لرحلة العمرة قابلت وليد صدفة في أحد مطاعم جبل عمان وكان لقاء

ودّيّا فشكا سوء حاله فتعاطفت معه لما بيننا من تشابه في عثرات الزمن، ولمّح للارتباط لعل النحس يفك عن كلينا، رفضته "يعني لازم يلتمّ المتعوس على خايب الرجا" ورجوته أن يتجاهل الموضوع وافترقنا بلا موعد.

انسللت من فوضى التيه إلى واحة الإيمان حين حملتني الحافلة مع نسوة المركز الديني من عمان مُيممة مكة المكرمة، المدينة التي لا تنام، لأنّها جذّابة لطاعة الأتقياء وأمنية التائبين، غمرني خشوع لمّا طالعتني الكعبة المهيبة المتلفّعة بحرير أسود وأوهج نطاقها آيات مذهّبة، أذهلتني نقوشا تزيّن سقوفا مزهوّة بأسماء الله الحسنى والآي الكريم، وتدافعت أفواج ربطتها وشائج الإيمان، متنوعة الأردية ومتمازجة بألوان طيف من أنحاء العالم فوق رخام صحن الطواف البارد وتلفح الرؤوس شمس لاهبة. هنا لا نسمع لغوا ولا تأثيما إلا ابتهالات خاشعة، وتترنم التراتيل القرآنية في الأروقة العتيقة المتجليّة بالحداثة، سعيت بين الصفا والمروة حيث سعت السيدة هاجر بحثا عن ماء لطفلها إسماعيل عليه السلام ومنّ الله عليها برحمة منه ليفجّر نبع زمزم، سألت الله الرزق الحلال لابني محمد أسوة بالطفل إسماعيل.

تأمّلت فضاء الكعبة المتدثر بوهج النقاء وخلت الملائكة تحلق بفضائها وتتجلّى فوق أعمدة نور بلا نهاية تكاد تلامس الوجوه الخاشعة، فالبيت العتيق لم يسكنه بشر بل قبعت فيه أصنام جاهلية وحطّمتها أيدي الحق لمّا أنار الإيمان القلوب. صعدت طابق الطواف العلوي لمشاهدة حوّام الطواف البشري في صحن الكعبة، بدا المعتمرون كنقاط في صفحة "بريل" يلوّحون تحايا التوبة للحجر الأسود ليستبدل العبد كيانه التائب بوجوده العاصي طالبا المغفرة والرحمة من الله، تحللت من إحرامي حين تخففت من خصلة شعر خلتها مشرّبة بخطايا ما سعيت لها، لكنّ قسوة الحياة الجاثمة على كتفيّ لوّثتني بدثار ذنوب منّزهة عن الكبائر لتفيض روحي سعادة غامرة.

توجّهنا للمدينة المنورة لزيارة الحرم النبوي، أعجبتني المظلات الشاسعة

التظليل في ساحته والتي تفتح أعنّتها بتلقائية تكنولوجيا العصر وكذلك الأسقف المضمرة التي تفتح للإنارة الطبيعية والقواطع الخشبية المحفورة بفن الأرابيسك، وارتقت روحي غياهب الإيمان، أحببت سكينة المدينة المنورة، زرت قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وقبور الصحابة رضوان الله عليهم ومزارات إسلاميّة. رجعنا الديار مكللين بالرضى وحمدت عطاء ربي لأنّ العمرة طقس إزالة للآثام، نالني تعب لكنّ مشّقة الطاعة تذهب ويبقى ثوابها وتذوي لذة المعصية ويبقى عقابها، تطهرت من دنس الشقاء آملة بطاقات فرج وألق الإيمان بالله، ولم ألتق ثانية بالشامي وظلّ ذكره الطيب في القلب ومع تعاقب المحن ندمت لأنّي تركت رجلا تميّز بخلق عظيم وكانّي اعتدت العيش بأجواء محبطة، وعدت للبحث عن عمل.

قرأت عن حاجة دار للمسنين إلى عاملة تشترط المبيت فيها زغردت فرحا لفرج الله المرتقب، فالمبيت متوفر والمرتب مرتفع وثواب عظيم لرعاية من أوهنهم أرذل العمر، أرشدتني المشرفة لمتطلبات العمل كتقديم الطعام والدواء والاهتمام بنظافتهم الشخصية، لكنّي نفرت حين ناولتني حفاضات للمسنّات، بينما كانت تلقي تعليماتها سمعنا صراخا فخرجتْ مسرعة فلحقتُها، إذ بعجوز وافاها الأجل فصدمتني رؤية الموت، انبريت بسؤال غبي "يعني فجأة بيموتوا" ردّت ساخرة "لا بخبروكي قبل ما يموتو" وسمعت بكاء هستيريّا لعاملة فالتفت لأرى نزيلة تغوّطت عليها أثناء إيصالها للحمام، هربت من الدار وأنا أتقيّأ قرفا قهريا ولازمني كابوس طافح بالمعاناة واستحكم بي الضيق وراودتني رغبة تحطيم مرايا العالم، كي لا أرى خيباتي وأعلنتُ هزيمتي كأنّ قناعا يحجب جوهر الأمور ويقتنص زغاريد هنائي، والمصير الغائم يصفع أنفاسي كمدا، راحت الذاكرة الواهنة تذوي على شتات كلمات حائرة، وأنهارت ذاتي كشجرة أضعفها النخر.

***

آخر الأبواب

١

ما يحزّ في قلبي عند الانزلاق هو أنني كنت أعلم أنني كنت قادرا على الصمود
«جان جاك روسو»

رنّ هاتفي مثل بارقة أمل وأضاءت الشاشة "وليد يتصل" تجاهلته لأنّه لم يعد لديّ جلد لسماع حكاياه وتكفيني انكساراتي، لكنّ إصرار الرنين جعلني أحادثه ليبلغني أنّه في عمّان لأنّ لديه عمل مهم، أجبته بجفوة "ما بتهمني رجعتك، لكن عمان ما فيها سائحات تصاحبهم ليساعدوك عالهجرة" فاستاء قائلا "معك حق تجافيني، لمّا نلتقي رح تعرفي التغيير" التقينا في منطقة عبدون التي تتماهى بقصورها وفيلاتها ومقاهيها الأنيقة وروعة جسرها المعلّق، وبادر بإظهار صدق النيّة للاستقامة والاستقرار وأقسم أنّه ألغى فكرة الهجرة ولن يلاحق السائحات، وتعاطفت معه حين بكى حرمانه من ابنته التي لم يرها وبكيت معه فراق ابني.

عبّر عن صدق نواياه حين أظهر لي عقد تأسيس مطعم مع صديق له يشاركه في رأس المال مؤملا الربح الوفير لتأمين مستقبله، وأزهرت آماله ليحلم في بناء فيللا في عبدون فأيقظتُه ليبقى على أرض الواقع، طلبني للزواج ووافقتُ نظرا للمعطيات الجديدة، ولمعرفتي بخصاله من خلال صداقتنا، ورأيت أنّ العيش بظل رجل أكثر أمانا من جدران الفنادق وبيوت المعارف، وقررت جمع عثراتي لأطأ درب السعادة، طلبت منه تناسي الماضي وفتح صفحة جديدة، أملا بحياة مستقرّة، وأكدت له أنّ قصة حبي لخالد انتهت التي أخبرته بها سابقا، ووعد أنّه لن يلاحق السائحات.

اتفقنا على موعد الزواج لنسكن شقة مستأجرة بالرصيفة، وكالعادة أثاث مستعمل وأمل بالتجديد عند نجاح المشروع وتحسّن الظروف، وعُقد القران في المحكمة الشرعيّة بلا حفل زفاف، جمّلتُ ليلتنا بطقس رومانسي، وأشعلت

شموعا على شكل قلب في أرض غرفتنا ونثرت الورود الجافة وعلّقت البالونات وتناولنا عشاءنا على أصداء الموسيقى، وبدت الليلة مثل ليلة من ألف ليلة، واشتعلنا مع شموعنا تحت الملاءة وأطفأنا لهيبنا بالمتعة الحلال، اعتدل ميزان الاستقرار الأسري، وتذوّقت طعم السعادة وأمّلت أحلاما مستقبلية واعدة واتّسقت أفكاري المبعثرة والمتعثرة، واستقرّت هدأة الحال لمدة سنة.

أخذ يتأخّر في عمله مبررا ذلك لكثرة رواد المطعم ليلا، وأحيانا يبيت خارج المنزل ويرجع بيدين خاويتين من احتياجات المنزل، لم أعرف أين يتسرب مردود المطعم الذي هلّت بوادر خيراته، ثمّ تحلل من التزاماته الأسريّة وأعلن أمرا صدّعني "أنا بدفع أجرة البيت وأنتي دبري الباقي" تجاوزت خروقاته التحمّل، وتهت في دوامة احتمالات شتت بصيرتي لتغيّر سلوكه، وذكّرني بأسطوانة سامر المشروخة، فشكوت لعمتي تيه حظي وفراغ ثلاجتي من ما يسدّ نهمة جوع غائرة، فعلّقت "شو منعمل البخت مايل، وخيبة الأمل راكبة جمل" وأمدتني بأطعمة معلّبة وجافّة وبعض النقد لأشتري الفلافل لما يقرصني الجوع.

تقصّيت عن أخباره واكتشفت حقيقة مذهلة، لقد عثر على زوجته البرتغالية وأعادها مع ابنته وأسكنها في الزرقاء، وأخفى زواجه مني خوفا من هروبها، واجهته فتوعّدني بإيماءات قاسية بالعقاب الصارم إن اتصلت بها لأبلغها بزواجنا وهددني بالطلاق وبالعودة للشارع، فأذعنت له ولم أستغرب تمسكه بي لأنه لا يثق بالبرتغالية وهو يهادنها لأخذ ابنته منها، بحثت عمّن يعينني من سطوة الانهيار فلم أجد إلا الصدى، وصار يأتيني ساعة لقضاء متعته، وطالبته بالعدل بيني وبين زوجته، رفض، وأخذ يتلكأ أحيانا عن دفع أجرة البيت، هاجمته مرة "المومس أحسن مني لأنها بتوخد أجر المضاجعة" صفعني، وبانت حقيقته وندمت على زواجي منه وتمنّيت لو ظلّ صورة لصداقة حلوة في الذاكرة.

توترت علاقتنا وسلبت زوجته البرتغالية وابنته وجوده من حياتي، أصبح عصبي المزاج يثور لأتفه سبب ويتطاول بصفعاته وبذاءات كلامه حين أطالبه بمال أو إصلاح مرافق البيت التالفة ويتكرر ردّه "دبري حالك"، تداعى إخلاصه للعمل وتراكمت ديونه لإنفاقه على رغبات زوجته الترفيهيّة، وتحوّل من شريك في المطعم إلى عامل فيه، تحتّم عليه الضلال لحجم المعاناة، تلاشى اهتمامه بمن حوله وانقرض تواجده بالحياة الاجتماعيّة، ورفضتُ تقبّل فكرة البحث عن عمل، ونفرت منه لقسوته حين أمرني: "بدك توكلي اشتغلي ما رح أصرف عليكي".

انسحبت روحي لقاع اليأس ونقمتُ على كلّ جهة طالبتْ المرأة العمل خارج حدود بيتها، لأنّ إدارة الحياة الأسريّة مهنة شاقة، والرجل ملزم بمناطحة الصخر للإنفاق على بيته، ورفضت فكرة الطلاق لأنّه غدا وصمة عار على جبهتي لتكراره، وأخفيت سرّ جدراني الواهية خوفا من تجريح همز ولمز معارفي الذي يصعب تقبّله، ويئست من ورود حظ جيد ليقيني أنّ معظم الرجال لا أمان لهم مهما كانت ثقافته إلا من رحم ربي ومصدّقة للقول "يا مآمنة للرجال يا مآمنة في الميّ بالغربال".

انزلقت في هوة النأي العاطفي، واشتعل حنيني لخالد مع علمي أنّ مجرد التفكير به خيانة زوجيّة، لكنّي لم أستطع انتزاعه من قلبي وفكري، وتأزّم الوضع بيننا وأردت إخماد ما اعتمل فينا من توتر فتركت البيت غاضبة لبيت عمتي ولمّحت بالطلاق، فجنّ وكاد أنّ يقبّل الأقدام وأماكن غير مستساغة لأرجع إليه، وأكثر الوعود وعدت لأفاجأ أنّه نقل بعض محتويات البيت لبيته الثاني فاغتظت لكنّه وعد بإرجاع البعض وشراء الباقي، فقلت له "إحنا عالوعد يا كمون" والتزم بوعده، عرضتُ عليه أفكارا لمشاريع صغيرة قد تعينه لزيادة دخله، رفض، لأنّه يؤيد رأي "من يقبل نصيحة امرأة يكون امرأة" كأنّ المرأة عار اجتماعي، استسلمت لواقع راوح مدّا وجزرا، دعوت الله أن ييسر مخرجا من أزماتي.

سعيت لعمل يؤمن لقمتي واحتياجاتي، عملت في مركز للتجميل وأوصتْ صاحبته الزبونات بزيادة "البقشيش" نظرا لظروفي المتداعية، وفيه التقيت بامرأة ثلاثينية اسمها وفاء يبدو عليها سيماء الفقر المدقع والاحتياج، زوجها يعمل بائعا متجولا للحلوى وعندها عشرة أولاد، شكت فشلها في تحديد النسل، اقترحت ممازحة، أن ينام كلّ منهما في غرفة، فهمت تلميحي وردّت "اللي بيعرف بيعرف واللي ما بيعرف بيقول كف عدس" لم أجرؤ على اقتحام خباياها لأنّه لمّا يفيض الكيل ستندلق الحكايا.

دخلت وفاء المركز يوما ووجهها منتفخ إثر لكمة قويّة، ونظرتها كسيرة، فاض الكيل، واعترفت أنّ السبب "الفياجرا" لأنّ زوجها طلب أن تشتريها من راتبها الذي لا يكفي لملابس الأولاد وقرطاسيتهم، لأنّ دخله بالكاد يكفي ثمن الطعام وحاجة البيت، ضجّ الحضور بالضحك لإصراره على الإنجاب في حيّز ضيق ومعدم لقناعته أنّ "الأولاد عزوة"، تمنّتْ أن تخصيه لترتاح من ذكورته المتوثبة مثل عفريت العلبة، إن لمسته صدفة يطرد أولاده للمصطبة "يللا كش بره" ويدفعها عنوة للسرير، وما يؤلمها غمز ولمز الجيران للموقف المخجل، كأنّ شهوته تيار جارف بلا قيود احترازيّة، وإن تمنّعتْ يضربها وإن تذمّرتْ يعلن أنّ هذا حقّه الشرعي أو صدقته عليها، وتبيّن أنّ وفاء تسكن وأسرتها في غرفة بلا مطبخ ودورة مياه مشتركة لغرف أخرى، وكأنّ الفقر يفرز صورا غريبة بمهارة.

اقتحمت حوارنا العانس ليلى "يا لطيف ناس عايشة بنعيم وما حاسة فيه" ردّت وفاء "خليكي بنتف شعر النسوان" قالت ليلى "بحب خلع الشعر المعربش متل الشوك ولمّع الجلد، وبحسّ بالست لمّا تجهز حالها للشهوة، وبتحسّر" ردّت وفاء "تعلّمي التسريحات أنظف من هالشغلة" تنهّدت ليلى "ما بترك شغلة إمّي الأرملة اللي كنت بحسّ بنارها لمّا تنظّف واحدة وبتولع من حكي غرف النوم" أشفقت على حرمان ليلى وأمّها وتخمة وفاء.

وهنتْ روابط المودة مع وليد وعشنا كغريبين كلّ له عالمه الخاص، حمدت الله أنّه لم يحدث حمل، ولم أرغب محادثته لأنّي شيّعت حبّه لمثواه الأخير، وأشعر بدبيبه في عميق نومي كشبح يفور شهوة ومتربّصا بي لينقضّ عليّ، فأتمنّع عنه فيعلو صوته الأجش ثائرا كاحتراق أحشائه فاستسلم بقرف كي لا يندلع شرّنا، وكأنّي عاهرة سرير يقرّب اشتعاله بين جسدينا، واكتشفت دونيّة سلوكه حين أوقع بين صديقاتي وأزواجهن لأنّي أخبرته بلحظة صفاء عن هفواتهن، فإذ به كشيطان يسرق أرقامهن من هاتفي ليتصل بأزواجهن لإيقاع فتن لا يعلم بنتائجها إلا الله.

أدخلني الفقر متاهة الاكتئاب لأنّي أبذل جهدا خارقا عن طاقتي لتدبّر أمور معيشتي فالراتب ضنين لا يكفي، ولم يعد لدينا قدرة على دفع أجرة البيت فاضطرُ لأخذ سلفة من راتبي. استأت من ردة فعله حين أعلنت عمتي أمامه أنّ عمي يقوم بإجراءات هجرتي لألمانيا مشترطا عودتي للنصرانية، عاودته أماني الهجرة ليسترضيني بلا تضحيات ويقنعني التظاهر بالردة لأجل الهجرة، رفضت المبدأ والخداع وحاسبت نفسي لأنّ ما يحدث سوء حظ أو سوء اختيار وندبت حالي أياما ببكاء مستعرّ.

أخذنا نتعارك بلا سبب وحطّمت صراحتي حدود صبره، فتداعت حنجرته بأقذر السباب مدّعيا أنّي ما اعتنقت الإسلام إلا لتبديل الرجال كالأقراط. هاجمته لأنّه مسلم بالهُويّة ولا يدرك جوهر الإسلام ويصلي مراآة للناس ويقصّر بنفقتي التي كرّمني بها الإسلام، فقهقه معايرا "صارت عادة لأنو ما في واحدة زيّك قبل ما توصل عمر الثلاثين اطّلقت أربع مرات والحبل عالجرار" قلت بعنف "أنت ما رجّال" التمع غضبه وصفعني "شو بعمل بالسرير يا جاحدة!" وبلغ السيل الربى لتأجج الملاسنات "يا حقير بتفكّر حالك زلمه ما الثلاثة من شكلك بشلن بسقف السيل، الرجولة أمان، استحي على دمك وأنت شايفني جرّة لشهوتك".

أصابني يأس من صلاحه، إذ لا سبيل لبوادر تغيير نحو الأفضل وبدت مجادلته

كمن يطحن بالهواء، وصرت غير قادرة على مقاومة حممه النازفة من ريحه العاتية، فقررت الهروب من حياته، وأحسّ بنفوري منه متعللة بأسباب واهية فهدد بحبسي في البيت، لكنّي أوهمته بالرضا عنه وأخبرت صديقتي برغبتي فنبّهتني بتحميل أثاث المنزل قبل عودته للبيت حتى لا يحدث لي كما حدث في المرة السابقة وأخسر كلّ شيء، فأخفيت الأجهزة الكهربائية بمستودع ما وهربت، ولمّا وصل للبيت لم يجد شيئا فأرسل على هاتفي "أغراض البيت احشيهم ... لأنّو عبّارة".

رفض أن يطلقني وتحفّز لمطاردتي واتهمني زورا بعدم إخلاصي له، مدعيا أنّ الذي قضّ مضجعه وجعله يقصر بحقوقي أنّي كنت معه بجسدي، أمّا مشاعري ملك للآخر، وكأنّي أعذّب واحدا وآخر أتعذّب لأجله، وندمت لأنّي صارحته بقصة حبّي، وأيقنت أنّ المطر لن يروي الرمل، فلجأت لإحدى معارفي طلبا للإيواء، رحّبت بي ونصحتني مُبيّنة أنّ الدنيا دار ابتلاء والزواج ستر ولكلّ رجل كبوة، ويكفي أنّه يقدّم الإيواء ومتعة الفراش وقاية من اللجوء للحرام، لذا عليّ الصبر وتحمّل أنانيته لأن ليس كلّ البلابل تنتمي للقفص، صفعتها بإجابة "الفنادق بتآويني وما رح تذلني الشهوة وما بعمل شي حرام وعند اللزوم الإيد بتسد، وكرامتي فوق كل شي" وبكيت ذاتي التي صهرتها عوادي القهر، وفقدت توازني لاختراقات كسّرت منحنى مخطط حياتي.

رفعت قضية شقاق ونزاع وطالبته بدفع مؤخر الصداق، لكنّه رفض الطلاق إلا بعد التنازل عن المؤخر، وجلست أنتظر في قاعة مليئة بالنساء اللواتي يسعين للطلاق، استغربت انتشار ظاهرة الطلاق التي أضحت كظاهرة الغناء الهابط. وأثناء انتظار المحامية لإنهاء إجراءات الطلاق، استمعت لقصص الظلم التي تقتنص إنسانية النساء، آلام هنا وآهات هناك تستجدي العدالة.

***

٢

لو دخل كلّ منا قلب الآخر لأشفق عليه
«مصطفى محمود»

روت السيدة إيمان عن زوجها الذي استولى على مالها الذي جمعته من عملها في الخدمة في البيوت لتأمين ثمن سكن لأولادها وتزوّج بأخرى وطَردهم من حياته ليتسوّلوا حاجتهم. شدّني فضول لمعرفة قصة السيدة دلال التي أرهبني أنين آلامها، واعتذرتُ لاجترائي خدش سكينة روحها المعذّبة، سألتها عن سرّ تأوّهها، فكشفتْ عن ساق شوّهتها الحروق.

سردتْ وجع معاناتها بكلمات أضفت مسحة مأساويّة على ما أصابها: عشرون عاما قضيتُها في خدمة زوجي وأسرته والحال من سيء لأسوأ، احتملتُ خُبث أمّه ولؤم أخته وتجرّعتُ مرارة الفقر وعبْء تربية خمسة أولاد، لقد وقعت الحادثة حين دخل المطبخ حاملا زجاجته معربدا من هيمنة الخمر ومغنّيا على إيقاع خطوه المهزوز، القدر يغلي وفيه حفنة عدس تصدّقتْ بها إحداهن، خلع ملابسه أمام أولاده، فصرختْ به "مجنون، إيش بتعمل" ردّ بحروف تائهة "أبوكي المجنون" زوَرته صائحة ومستقوية بابني الكبير، وجرّحتنا الملاسنة ونعت أهلي بأقذر الصفات، ورددتُ عليه بالمثل، لأنّي كنت ألتزم الصمت هروبا من الشرّ لكنّ الكيل فاض، إذ به دلق قدر العدس الذي يغلي عليّ، تشوّهت، وبقيت وحيدة بالمشفى أعاني آلاما لا تحتمل، واسيتُها "إذا تولّى عنك الناس في كرب، اعلمي أنّ الله سيتولّى أمرك".

دخلتْ المحكمة سيدة تسحب أختها من يدها لما بينهما من شبه كبير، دفعني الفضول لتوسعة مكان لهما جانبي، كلّما تركتها الأخت الكبرى لمتابعة إجراءات القضية توصيني "انتبهي لها"، أردت محادثتها فردّت بعبارات مبهمة تغوص بالفم

ولا تطالها مخارج اللسان ونظراتها تائهة، سألت أختها عمّ بها، ردّت محتدة "كلّ المصايب بتيجي من الرجال العاطلين الله يحرقهم ويريّحنا".

خبّرتني أنّ أختها كانت معلمة وأحبّها مدير المدرسة الأربعيني الوسيم، لكنّه لم يستطع الزواج منها لأنّه أبّ لأسرة، فأرادت أن تغيظه، لتتزوج من حلاقها وهي مدركة أنّه ينوي الاستيلاء على أموالها لكن غلبتها رغبة مكايدة المدير فوقعت في مصيدة الحلاق، الذي ظلّ يضربها على رأسها لأتفه سبب حتى أحدث لها ارتجاجا بالجمجمة، مما أفقدها الذاكرة وتاهت معلوماتها، فتقاعدت واستولى على تعويضها الضخم وشقتها، مع الزمن أصبحت معاقة وخطط ليأخذها لمصر لتتوه في الزحام.

سردت لها معاناتي، ودّعتني وجرّت بقايا إنسانة لتستردّ مالها المسلوب من زوجها، وتمنّت تفريج همومنا، ورأيت ما بي هيّن لأنّ من أقسى المحن حرق الجسد وفقدان العقل، وهذا تدبير لا يقدر عليه إلا شيطان ملعون، لأنّه يصعب وجود رجال طيبين بزمن استشرى الفساد بأجياله وأضاعوا الأمانة وجوهر الدين.

جلست قبالتي سيدة تنعم بالثراء والكبر، حدّثتها لقتل وقت الانتظار، سردت قضيتها بلهجة عربيّة تُفهم بصعوبة "التقيت به أثناء دورة تدريبيّة بفرنسا وألهبتنا قصة حبّ سريعة كوجبة سريعة وتزوجنا، مع السنين اكتشفت من سلوكه دونية مستواه الاجتماعي، فاتهمتُه بالشذوذ زورا وخلعته، واحتفظت بولديّ لأن راتبي يؤمن احتياجاتي" وأدركت أنّها قوّضت دعائم أسرتها حبّا بالتغيير لأنّها ملّت منه. وهذه السيدة ناديا تلزم زوجها الإنفاق بغلو على رفاهيتها التافهة ولمّا رفض حرّضت ابنتها لتتهم أباها أنّه اغتصبها افتراء لتنال الطلاق. رأيت الظلم قد يقع من امرأة متسلطة على زوج مسكين، وأدركت الحكمة الإلهيّة من إلزام الرجل الإنفاق على زوجته، لأنّ بينهما علاقة احتياج، إذا تحررت المرأة ماليّا من الرجل ترفضه لبعض عيوبه، وأحيانا لرغبتها في استبداله، لو كانت معادلة الاحتياج متبادلة ستتغافل عن عيوبه لاحتياجها له، وتمنيت لو تقتدي نساء المسلمين بالأمر

الذي ورد بالآية الكريمة لنساء آل البيت ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ تكريما لهنّ.

نادى معلن المحكمة اسمي، ولّما رآني القاضي قال دهِشا "يا بنت إلياس ما تعبت من تكرار الطلاق" رددت مقهورة "شو أعمل لحظي الخايب وأنا متل المسمار اللي صرّخ الخشب فيه: بكفي كسّرتني، أجاب: لو شُفت الضرب فوق رأسي لعذرتني"، وتمّ الخلع وتنازلت عن كلّ شيء لأحتفظ بكرامتي.

خرجت من المحكمة ليستوقفني متسوّل، فأعطيته صدقة لتفريج كُرَبي، هيئ لي أنّي أعرفه وأخذت ذاكرتي تجوب وجوها مختزنة، لمع اسمه كومضة برق "عدنان الدنجوان"، لأسترجع صدى دعوات حليمة "الله ينتقم منك"، يا الله إنّ انتقام الله عدل، وعقابه آتٍ لا محالة، لأنّه يمهل ولا يهمل، ها هو يتسوّل كمعتوه بعد أن أصابه الزهايمر، ورائحته منفّرة لأنّه يتبوّل على نفسه.

ظل وليد يترصد خطوي ويعيقه ليطلبني لبيت الطاعة، غيرت رقم تلفوني هربا منه ومن مبادئه وثوابته الغبية ورغبة بهدأة الأعصاب، وكأنّ الحبّ والكره يتساويان في الأخذ والعطاء، بعد شهور هدأت نقمته وترك ترصّدي، وخلت نفسي عقربة تنهي زواجها بعد أن تنتهي من لحظة حب، وتلاشى الأمل في العثور على زوج يخاف الله ويتصف بالخلق الكريم ولديه مقومات القوامة الحقّة التي لا يدركها الكثير من الرجال، وصرت روحا تلاشى قوامها من وطأة تتابع جراحها ورفضت الخضوع لأيّ فرصة زواج تلزمني اختيار خاطئ لاحتياج مكانيّ أو مادي.

***

التقيت يوما صدفة بروائيّة حريصة على تتبع أخباري فسألتْ عن حالي فأخبرتها أنّي "تجوزت للمرة الرابعة" علّقت "أنت بتجددي أخطاء وما بتغيري أزواج"، وتعجّبت من قدرتي على معاقرة رجال الذين هم مثل كؤوس همّ تسكر الرؤى، طلبت منها كتابة قصة معاناتي ووعدت، لأنّ ما يحدث معي يستحق أن يحفر على جدار الوعي والضمير الإنساني.

٣

ليتني كنت بئرا جافاً تُرمى به الحجارة فذلك أهون عليّ من أن أكون
ينبوع ماء والظامئون يجتازونني ولا يستقون
«جبران خليل جبران»

شعرت باختلال الكون حولي وهزمتني أعصابي المشدودة، وطرحت على ماريا المأزومة أسئلة ضجّت برأسي، هل أضربُ أسوار القهر بقبضة يدي أو أرفسُ الأرض بقدميّ لعل قبس أمل ينبثق، هل يأتي يوم ألتقي بالرجل المناسب ولأجد فرصة للحياة بكرامة؟ ولم يقبل أحد إعالة متشردة، وعدت لعمتي وقبّلت يديها لتعيدني إليها فرمتني بنظرة عتاب ومسحة صلابة، واحتضنتني.

أومضتْ شعلة أمل حين تأكّدت عمتي من خلال معارف أمّي أنّ أهلها تركوا لبنان زمن الحرب الأهليّة واستقرّوا في مأدبا لمتانة الوشائج مع بعض العائلات النصرانيّة، واستبدّ بي فضول للتعرّف عليهم لعلّي أجد الأمان والإيواء لديهم، طلبت من أمّي العنوان رفضت قائلة "وليه تخزيني مع أهلي" لم أستسلم وبعد إلحاح شديد أعطتني رقم هاتفهم قائلة "ما رح تستفيدي شي وما رح يطلّعوا بوجهك"، اتصلت بجدتي وأبديت رغبتي بزيارتها فأعطتني العنوان بجفوة، ناورتني أفكار سلبيّة فالمهمة تقتضي المداهنة والمُراآة، لعلهم يتقبّلوني.

انسللت إليهم من زمن اكتظّ بالضياع إلى حضن الأمل، حثثتُ الخطى نحو حافلة تخترق طريقها إلى مادبا حين تململتْ الشمس بمهدها لتغزل كرنفال أضواء، واستكنت قرب النافذة لأرقب انخطاف مناظر تظهر وتغيب من سرعة الحافلة لمزارع هي سلال الخضار الوطنية الزاخرة بأنواع الثمر، وأثارت رؤية أسراب الحمام الرمادي غربة مكاني وزماني لتوقظ أحداث أزمنة دفنتها في غوري

القلق، لأرحل على صدى هدير الحافلة للأماني الورديّة التي شابها خوف من تبعات مشواري.

لفت بعض ركّاب الحافلة نظري لأرقب أزيائهم الفلكلوريّة الجميلة، وتطفّلت على شرودي عجوز مأدبيّة ترتدي ثوبا مطرّزا بإبداع، أبديت إعجابي بثوبها وشدّني فضول للتعرف على أنواع الملابس الفلكلوريّة لتخفيف وطأة المشوار، ولمعرفة المزيد من أخبار أهل أمّي لأنّها عجوز تحبّ الثرثرة وتفشي أسرار البلد.

ارتسم اهتمام على محياها واندفعت تعرّف ملابسها وتحكي عن أناقة صباها "هاد اسمه مدرقة واللي على رأسي عصبة، زمان لِبست عَصبة حمرا مزينة بالشناشل متل السلطيات وعصبة كركية مرصعة بالمباري، وبشكير ألماني مزين بالورد ومشبّكة طرافه مثل حريم الغور، كان لون ثوب المتجوزة غير لون ثوب العزبة، وثوب الحزن غير ثوب الفرح اللي مزيّن بخيط ذهبي، كانت النسوان تغطي راسها واليوم مفرّعات وهاد عيب".

انبرت بعُجب "وحطيت الشنبر" استفسرتُ "حجة، شو الشنبر؟" ردّت "قماشة مقصّبة تلف على الرأس تحت العَصبة" تابعت شرحها "ولبسنا العُرجة اللي بتدلى للظهر ومزينة بالذهب والخرز وتلبسها العرايس والمتزوجات في العراس" تحسّرت "نيالك عندك ذهب كتير" ردّت باعتزاز "كان كتير لكنّه راح على زيجة ولادي، اليوم إحنا فقرا نطرز الثوب بقطن، ولبست الصَفّة اللي يحطونها بالنصّة بجهاز العروس وناس تسميها الهبرية".

تابعت وصفها "كان الرجّال يلبس كِبْر روز وقبته مزيّنة قيطان، والقمباز والدامر غامق، وحطةً حمرا مهدّبة بخيط قطن، ويحط الشماغ على المرير (العقال)، وعبايته من وبر الجمال، والسروال فضفاض، والكريم يحط شبرية في جناد مصلب على صدره عشان يذبح ويطعمي ويدافع عن حاله في الصيد، الزلام اليوم يلبسون

الضيق ويعلقون التفلون للحكي الفاضي". قطعتُ ثرثرتها "بكفي، بتعرفي عيلة طنوس" استرسلت بملامح تذكّر "سمعت عنهم لكن ما بعرفهم، بيقولوا أنهم أغنيا كتير".

حلّقتُ وراء حلم العيش في كنف الثراء، لكن انبرى أحد الركاب "هالعيلة بتسكن بيت قديم وما بختلطوا مع حدا" أدركت مدى انغلاقهم على ذواتهم وتمنيت لو يروني مؤنسة لهم غير متطفلة على عزلتهم، شكرت العجوز لوصفها للأزياء التي تعبّر عن المكانة الاجتماعية وتعكس خطوط التكوين الثقافي المتنوع لتراث البيئة الأردنية، وتمنّيت لو يعود الزمن الجميل ليعيد معه القيم الأخلاقية والإنسانية والتواصلية التي كادت أن تتلاشى.

وصلتُ المنزل الكبير ذا الجدران المتطاولة وتلفّعت بغربتي لألج ممرا ضيّقا ينفرج عن حديقة غمرها دفق من ضوء الشمس وأريج ياسمين فوّاح، أشعرني هسيس الأغصان وصوت انكسار المياه بالرتابة لكنّ الرذاذ المتناثر من نافورة البركة أجفلني، رفعت رأسي بتُؤْدة لتواجهني أدراج لولبيّة وسقف يتعالى كلّما ارتقيت بالنظر، طرقتُ بابا خشبيا بيد حديديّة، فتحتْ الخادم، دخلتُ بهو قاعة ملمومة بإحكام وأنثالت نظراتي على رخام أرضيّة صقيل، وأثاثها مغطّى بالقاطيفا الرهيفة، وقطع سجاد صغيرة بهية الرسم مبعثرة بتنسيق مميز، ويخالط ألوان نسيجها البنفسجي الداكن والزهري الفاتح وتوشيحات خفيفة للفستقي.

في الوسط طاولة موزاييك، النوافذ متطاولة، سكون رهيب يخنق الأنفاس، فجأة، ندّت ندهة خوف مني لمّا رأيت حيوانات محنّطة ترمز لشجاعة من غادروا، كذئب كبير وصقر وأفعى صقيلة الناب تراوغ للمداهمة، البيت يعجّ بغرف خاوية فدعوت الله أن يكون لي في قلوبهم مكان قبل جدرانهم.

دخلت سيّدة كللّها الشيب بوقار وتناغم انحناء ظهرها على إيقاع طقطقات

عظامها كعود تشتدّ أوتاره ليعزف نشيد الوداع، اختلطت ملامحها بتعب دفين، قبّلت يدها ورأسها تقديرا أو توطئة لتسريب حميم دموي، إنّها جدتي، رحّبت بي، لمحت في الشرفة امرأة خمسينيّة تصعّر خدّها ماكثة على عقبيها مداعبة لضفيرتها المنسدلة وتتمتم كلمات كأنّها في طقس عبادة لصلاة مجهولة، نظرت إليّ بحيادية ومتعالية، أقبلت وصافحتني بطرف أصابعها "أنت بنت باميلا!" أومأت بالإيجاب، عرفت أنّها خالتي مادلين العانس، وأشارت من قدميّ لقمة رأسي باحتقار "ليه ملابسك هيك؟" تجاهلت لسعتها، جلست مع جدتي سائلة عن أحوالها، وقصصت عليها ملخصا لخبايا عمر موغل بالخيبات، ومذاق الذكرى يكوي حلقي، عانيت من الشرح لثقل سمعها ولتوهان ذاكرتها، وقالت بلا مبالاة وكأنّها صفعة مفعمة بالقسوة "شو بعملك".

استدرجت جدتي لتفرّغ مكنونات جعبتها من أخبار ماضيها السحيق لعلها تألف وجودي فتتشبث بي، فانبثقتْ كشلال تشكو معاناتها من زمن قوّى شكيمتها، أكبرتُ تضحيتها لأنّها كافحت لتربية أبنائها بعد ترمّلها في ريعان صباها، لكنّها أعطت الكثير لتتعوّد أمي أنانية الأخذ والجشع، عرفت أنّ خالي مخائيل مهاجر لكندا، وفردريك لديه شركة آلات موسيقية في الزرقاء. طلبت منها أن أعيش معهم فانبرت "مين بدو يصرف عليكي إحنا ما منصرف على أغراب" قهرتني جفوتها وأجرت دمعي. تشاورتا ثمّ بلّغتني خالتي بتهكّم "خليكي ضيفة لأسبوع، التلفزيون منشوفه عا كيفنا، ما دخني وما تدّخلي فينا وما تحكي مسلمين".

لذت بإحساس كسير، وهزّتني قشعريرة لفحة صقيع، تقرّبت من خالتي وتمنيتها الأم البديل في زمني القاتم لكنّها لم تعبأ بمعاناتي وأقصتني رافضة التقرب مني بحجة خصوصيّة مزاجها، نظرت لي بحنق وهاجمتني "كيف تجوزتي أربع مرات وأنا ما ملاقية ربع رجّال علميني كيف بتتصيّديهم، هالقد مولعة وفاجرة

كأنّك بتبدلي صرمايي واللا كيلوت، يعني لّما بصير عمرك خمسين سنة بتخلصي على رجال البلد، اتركي واحد للمسكينة اللي زيّي" جرّحني كلامها وحاولت أن أدافع عن نفسي وأشرح لها ظروفي "ما تظلميني، وأختك هي السبب في اللي صار فيي و..." ردّت بقهر "ما بدي أسمع شي، أنا أحلى من إمك اللي تجوزت مرتين، وهاي ستك ما رضيت تجوّزني وحطّت العلل في اللي طلبوني، وبعدين لقيت العلة فيها، ضحّت بشبابها لتربينا وضحّت فيّ حتى أخدمها بعجزها" وانسحبتْ مرتجفة ليدوّي باب غرفتها، مسكينة، تهفو لرجل يطفئ لهيبها ويناجي وحدتها ويؤنس هدأة ليلها، عذرت نفورها مني لحرمانها.

كانت خالتي ترفض مشاركتنا الطعام وحيّرني لغزها لأنّها تقضي معظم وقتها في غرفتها المحكمة الإغلاق خوفا من اقتحام خلوتها، شككت أنّها تدعي النوم نهارا لتمارس فعلا سريّا من مقتضيات إفراغ شهوة خمدت في ظاهرها لكنّ نيرانا تؤججها، وإن جالستنا تلتزم الصمت لا تشارك بأيّ موضوع ولا تفرحها إلا نكتة فاسقة أو تلميح بفعل إباحي، تشاهد الأفلام الأجنبية لتحدّق بشبق بالمشاهد الإباحية العارضة وتتابع عروض أزياء سافرة. في غرفة الجلوس تستلقي على أريكتها الخاصة بها وتباعد بين فخذيها وكأنها تستعد لمضاجعة وتفتعل حركات غنج لا مبرر لها.

أردت الهروب من قدحهم فأرسيت مرساتي على قمة جبل مكاور بمأدبا على خط الطريق الملوكي الغني بالمناظر الخلابة، حيث تتبعثر بخنوع بقايا قلعة هيرودوس التي شهدت مأساة يوحنا المعمدان، وأظهرت مكر النساء والخيانة الفظيعة، لأنّه رفض الإقرار بشرعيّة العلاقة المحرّمة بين هيرودوس الحاكم وزوجة أخيه الطاغية الجمال، ثمّ هربت معه للقلعة لأجل الجاه ولإسكات يوحنا المستنكر لخطيئتهما علنا ليهدد ملكه بالزوال، سجنه بالقلعة ولم يؤذه لمهابته.

طلبت هيروديا من عشيقها عدم الإصغاء ليوحنا وتحذيره من ادّعائه عليها، ومرت السنون ويوحنّا في سجنه يعلن إثمها ويصرّ أنّها موصومان بالخطيئة، وحقد هيروديا عليه يلتهب شررا وظلت تتحيّن الفرصة لتغرس نابها به، وحين تألق جمال سالومي ابنة هيروديا وأبدعت فن الرقص، وعشقها هيرودوس لكنّها رفضت الانصياع للفاحشة معه إلا بعد تقديم الثمن بالاتفاق مع أمّها وكان الثمن رأس يوحنا، فأمر حراسه بقطع رأس يوحنا وتقديمه هدية على طبق من فضة عند قدمي سالومي في حفل ميلاده بعد رقصتها الشهيرة لتشفي غليل أمها من نبي نعته عيسى عليه السلام "ذبحوا من لم تلد النساء مثله".

تحققت أمثولة الثبات في الحق (سأقول الحق لو على قطع رأسي) وهذا عمل الطغاة لأنبياء الأمّة ومصلحيها. وخلت هذا الاسم له سحر أنثوي خارق إذ تداعى لذاكرتي اسم "لو اندرياس سالومي" ملهمة العباقرة الملقبة بالمرأة البركانية التي شغلت الأوساط الثقافية وصعقت محبيها وأغرم بها العباقرة لجاذبيتها وثقافتها مثل فرويد وريلكه ونيتشه وذكروها في كتبهم.

رجعت من رحلتي لأستحمّ من التعرّق فصاحت بي "أنتو المسلمين ما بتحمموا إلا بعد جماع مع مين كنتي" ثارت كلماتي "أنا طاهرة شريفة واستحممت نظافة" نظرتْ بمكر "ما شبعتي رجال، غيرك ما بشوفهم إلا بالاحتلام" أردّ مشفقة "كلّه نصيب" فتردّ بإسفاف "مش نصيب لأنّك مره سالوميّة" تجنّبت مجادلتها لأنّها تقصد تجريحي وكي لا تظنّ أنّها نالت مني لحقارتها.

ما يحدث معي موغل بالغرابة بكلّ المقاييس، كسرتني حججها الواهية لرفضي، وخنقتني زحمة الكلام اللاذع "لو فيّ خير لاحتضنتني أمي"، قلقت لوجودي المرير وسرى بي حزن خفي كمدمن طوّحته الخمرة، ليتها ترضى العيش معهم لتصنّعت العمى والغباء، وأعرضتْ عني لأنّ جذوة الخير انطفأت فيها،

وعلّمني كبريائي مواجهة السفيه بصمت ولن أذلّ لمن جرحني.

لقد زادت غربة خالتي الاختياريّة التي جعلتها مبتورة العلائق الاجتماعية في خواء مكاني، وأَشفقت عليها رغم لؤمها. أحيانا تقتحم سهوتي وتغمز لي بوقاحة "مع أيّ جوز كنتي تنسبطي أكتر، وكيف!" وتقدحني نظراتها المريبة لتتراءى لي نظرة رجل تتوالد في دمه أجيال شبق هادر، فأرتعد. أحيانا تتقصد ملامسة مؤخرتي أو صدري فأتجاهل مقصود حركاتها، ولم أنس عمق تنهيدها حين ضبطتُها تراقب كلبها يعاشر كلبة الجيران.

في سهرة ضبابية الرؤى تقرّبت خالتي مني، لأكتشف أنّ سرّ تحوّلها لأنّها ترغب برفقتي لـ"حمامات ماعين" المعروفة بينابيعها المعدنيّة الحارّة جنوب مأدبا، انطلقنا فجرا ليبدو الأفق كأنّ يدا من ظلام وأخرى من نور تتناوبان على جلاء النهار، هذا المنتجع يستقطب السيّاح للاستجمام في شاليهات علاجية خاصة ليعلو من حوضها هبو البخار ذو الرائحة الكبريتية الخانقة.

انزلقت النسوة في البركة الكبيرة لتعلو تأوّهاتهن من لسع المياه ونبّهتهن أن لا ينزلقن لغورها المتّقد، دهنت جسدي بمواد عازلة تفاديا للاحتراق، التقطت نفسا مبتورا وانزلقت في البركة لتذيب بعض دهوني وآلامي وتلّون جسدي بحمرة قانية. عبّرت خالتي عن فورة شهوتها بأساليب ملتوية ورأيتها تفترس أجسادا شبه عارية بعينين تجحظان حرمانا، حاولتُ منع قهقة مجتزأة، ورمقتني بغضب لاكتشافي سرّ نهم عينيها للعري، عند الرواح ارتفعت حرارة جسدها وارتعشت وحار الطبيب لأسبابها، همست لذاتي: لعلها حرارة الشهوة التي تأكل جسد امرأة بلا حضور.

* * *

٤

أقوى المحاربين هما الوقت والصبر
«تولستوي»

لم أعد آمل باحتوائي وقررت المغادرة لأنّهم أغلقوا بابا قد لا أطرقه ثانية وغبت في عمق صمتي ألوك حروفا تردد صداها بعمق جراحي، أردت قتل وقتي ولم أدرك أيّنا يستلب حياة الآخر، فقررت الهروب لماضٍ سحيق لأنعتق من هرطقات الزمن الآني، للترفيه ولأشبع هواية عشقي للمدن الأثرية، تجوّلت في مأدبا مدينة الفسيفساء التي تكوّنت آثارها من مليوني قطعة فسيفساء وتعدّ من أكبر المتاحف العالميّة. سلكت خط الرصيف السياحي للمعالم الأثرية مستهدية باللوحات الإرشاديّة لأستقرئ حضارات سادت بإنجازاتها وبادت، وتنقلتُ بين أحياء تتمايز بفنّ عمارة موغل بالتاريخ وأخرى مترفة الحداثة والتنظيم، وأشجاني خرير السيول وصدى المآذن الشامخة ورنين أجراس الكنائس.

رحّبتْ نسائم الأشجار الباسقة بزوار منطقة "جبل نبو" الذي ورد ذكره بالتوراة "اصعد جبل نبو الذي بأرض مآب الذي قبالة أريحا"، غمرني قبس روحي حين تماهى الجبل بسكينته، وأثارت أفياؤه ذكرى أقوام مرّوا هنا، ها هو النصب التذكاري المهيب لعصا النبي موسى عليه السلام والأفعى الملتفّة حولها والتي ترمز لمعجزته، هنا وقف النبي موسى عليه السلام على الجبل مع قومه ورأى الأرض الموعودة التي لم يصلها، ويعتقد اليهود بلا دليل أنّه دفن هنا وأنّ قمته تضمّ رفاته، لكنّ علماء الآثار لم يعثروا على قبره، فالمنطقة مهد ديانات يقصدها حجاج اليهود من العالم وهو موقع مقدس لدى المسيحيين.

بدت السماء كبحر بلا أمواج وفاض المكان بألغاز طبيعة بانورامية ساحرة،

وخلت أنّي أحلّق بفضاء شاسع شديد الصفاء، هذا الجبل من أفضل أماكن المراقبة في العالم وتمكّنت من رؤية البحر الميت ووادي الأردن وجبال البلقاء وجبل الشيخ والبحر المتوسط، بُهرت بإطلالة أرض كنعان المشعّة بأنوار الأرض المقدسة وأبراج الكنائس. على قمة الجبل شُيّدت كنيسة إيوانيّة يوصد بابها بأقفال خشبيّة، ونوافذها معشّقة بزجاج مشعة ألوانه ورسومه مبهرة، تتمازج أرضيتها بلوحات فسيفسائيّة من عالم الأساطير ومطاردات صيد الطيور والأسماك، وتصدّرت الجدران مجسّمات تعبّر عن تراث دينيّ منقوش.

مازالت الجهود الجبارة تبذل لبناء الأجزاء المتهدّمة بفعل الكوارث الطبيعية وترمم للحفاظ على هيئتها التاريخيّة، ويُقام قداسها رغم تهدّم أجزاؤها لأنّه إرث الإيمان باللامرئي. في قلب مدينة مأدبا تقبع كنيسة "القديس جورجيوس" الزاخرة بأشجار معمّرة متلفّعة بالنباتات المتسلّقة والمتدليّة لتوشّي ساحتها بظلال متوهجة، أرضيتها مرصّعة بخريطة بيزنطية مرسومة من الفسيفساء لمدينة القدس وللتلال والأودية والقرى التي تصل لدلتا النيل، وتدل الرسومات على موقع عمادة المسيح في ضفة الأردن الشرقية، وهذا الموقع يمثل مقصد الحجيج، ويسمى موقع المعمودية وتضخ إليه مياه التعميد النقيّة من نهر الأردن.

هنا يتمازج الدين مع التاريخ ليعبّر عن فنون مشرّعة على الفكر والفلسفة، ويعدّ طريق تراجان الروماني منطقة حضارات عظيمة، ويوجد في المنطقة آثار إسلامية مثل أقدم مئذنة أموية ذات درج حجري في مسجد بلدة القسطل، وتميّز مقام أبو ذر الغفاري بدهليز وممرات متقاطعة وأقواس بالفراغ منحوتة بلون آجوريّ وأبجديات كوفيّة وأبواب معشقة بالنحاس. تساءلت ما دام كلّ شيء لزوال لمَ يتهافت البشر على الدنيا! استشعرت عظمة الله ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧].

هذه الآثار الدينيّة تؤكد مشاركة المسلمين والمسيحيين بالمعيشة لوجود مواقف مشرّفة، مثلا حين قُرعت أجراس الكنيسة مرّة للإفطار لأنّ المرض منع إمام المسجد من الأذان، وامتنع بعض المسيحيين عن طبخ اللحم نهارا كي لا تصل رائحة اللحم للصائم حرصا على مشاعره، ونافست بعض العائلات المسيحيّة العائلات المسلمة بالتبرّع بإفطار أول رمضان لصائمي المسجد، وشاركتهم الإفطار لزيادة الألفة وإبعاد العصبية لتعزيز التواصل الروحي الذي دعى إليه الإسلام والمسيحيّة. إنّ أكثر مساجد مأدبا اتساعا مسجد الحسين بن طلال الذي تبرّع بأرضه أحد أبناء عشيرة مرار المسيحية وساهموا في بنائه، وبنى غالب العتيبي مسجدا سمّاه المسيح عيسى ابن مريم وزيّنه بآيات قرآنيّة عن المسيح والبتول لتقوية التعايش الاجتماعي، ويعدّ المسجد علامة فارقة لوقوعه قرب كنيسة المدينة.

ظلّت دعوة جلالة الملك عبد الله الثاني في "رسالة عمان" تنادي بتفعيل حوار الأديان لبناء جسور التواصل وإزالة المفاهيم المغلوطة لأتباع الديانات ولإيجاد حياة مشتركة تتسع لمطالب العقل والروح لتعظيم قيم السلام والتسامح الديني.

أرهقتني جولات الكرّ والفرّ وأخذني التفكير لأتساءل، لمَ لمْ تنقذنا الأديان والإبداع المتواتر مع الزمن من التخلف والفقر القابع في حياتنا ومنعنا من التوغل المعرفي خوفا من اللامرئي. وأيدت رأي العالم العربي أحمد زويل عن أسباب تخلّفنا "الغرب يرتقي بعلمائه ونحن نذل مفكرينا"، ليت علماءنا يربطون الحقائق العلمية بما ورد في القرآن الكريم كما يفعل العالم زغلول النجار، لأنّ العلم يرتبط ارتباطا روحيا وعقليّا بالمعتقد الديني والمنجز الإبداعي، ولإقناع المتشكك من غير المسلمين بمعجزة القرآن الكريم، وذلك ينقذ البشر من صراع التجاذب بين العقل والإيمان، ويفتح باب الاجتهاد الديني أمام العلم بعيدا عن النوازع العرقيّة والمعتقدات الدينية والمصلحة الذاتية.

٥

انظر حولك بتمعن وتعرّف على ضياء الأرواح ثمّ اجلس مع
أولئك الذين يجذبونك لذاك الضياء
«جلال الدين الرومي»

لم يستدر انكساري عطفهم وتهشّم على جدار القسوة قول "ما أغلى من الولد إلا ولد الولد"، اقترحت عليّ جدتي كي ترتاح من وخزة ضمير تائهة "هاد رقم خالك طوني في الزرقاء روحي عندو يمكن يشغلك". هاتفته وأبديت رغبتي في زيارته، جفّت اللّهفة من كلمه "سمعت عنك، تعالي"، ذهبت إليه لعل المشاهدة تزهر حميميّة الدم بالمحبة، تبادلنا النظرات وقال متجاهلا "أيّ خدمة"، ندهت "خالي" نظر باستخفاف "آه، أنت بنت إلياس الفلسطيني المسلمة" زفر بشدّة مستطردا "لمّا انغرمت باميلا بإلياس الفلسطيني اللي من زعران المنظمة جنّيت ولمّا تجوزتْ نويت اقتلها، وأنت فلسطينية وأسلمتي، كيف أقبلها، حلّي عنّا".

ضبطت أعصابي وهو يزفر شطط كلامه على عواهنه "ما برضى تغلط بحق أبوي والزعران تآمروا على قضيتنا ومن حقي اختار ديني، شغّلني معك كرامة لصلة الرحم أنا شاطرة بالشغل" رفض بسبب حجابي، سكتّ بإباء لأنّ استهزاءه لم يزعزع ثقتي بذاتي التي تعتدّ بمبادئها، توقّعت منه إفادتي بإشارة أو تلميح ضمني للعمل بمحل يضم سبعة موظفين، طفح حقد قلبي وبيّنت سُخف حجته "أختك رمتني وأنا طفلة وكانت قادرة تربيني، وأنا بدّي شغل لأربي ابني، وأنا نصرانية تربيت عند جوز عمتي المسلم وما دوّرتوا عليّ ليه الحقد على الدين" نفر مني وأدركت أنّ أبواب الأمل أغلقت بوجهي وحشّت الخطى مبتعدة خوفا أن تخونني شهقة بلغت حلقي ونشيج أوغر مداه في صدري.

علمت لاحقا أنّه وظّف إحدى معارفه، بعد مدّة اتصل بي ليبلغني أنّ صديقا له يريد معرفتي ولديه حلّ لمشكلتي، التقيت به وإذ به نصراني يعرض عليّ زواجا مدنيّا مقابل تسجيل شقة باسمي في الزرقاء، أدركت لعبة خالي فأوهمته برغبتي بالعودة للنصرانيّة شرط أن يوثّق لي صكا بملكية الشقة قبل عقد القران، فأعطاني جواز سفر باسم مزوّر للسفر لقبرص لعقد قران مدني، أدركت نذالة المؤامرة رافضة إغرائه للتخلّي عن ديني، فالمعاناة سرّ الغواية وشيطان الخطايا، اتشح قلبي سوادا لأنّه لم يدرك أنّ ما أتمناه غرفة تحفظ كرامة استباحها الضياع وذل السؤال.

بعد شهور هاتفت جدتي للاطمئنان عنها، فأخبرتني عن عودة خالي مخائيل من كندا لمادبا، توهّجت أمانيّ وخلت نفسي مبعثرة الأماني فسألت أمّي عنه، حذّرتني من لقائه لقسوة طبعه، ولأنّي لن ألقى إلا التهميش وتحاشيت صورا مسيئة استدعتها الذاكرة، لكنّ هاجسا أمّلني خيرا، فزرتهم متجاهلة تلميحاتهم الساخطة وإيماءاتهم التي لا تحتاج حروفا للتواصل فتعبير الوجه كافٍ، وأدركت رغباتهم الظاهرة والمبطنة فانساب ريقي برهبة قصيّة لأتقوقع على ذاتي بمقعد قصيّ ككلب أجرب.

كرّ شريط حياتي وكأنّي أقطع مسافات حافية القدمين فوق رمال لاهبة وإحساس بالعزلة يزجر عناني، أردت الانفلات من مكاني لأتداعى بحومة بكاء لتلاشي صلة الرحم في أتون حقدهم على ماريا المسلمة، سلّمت أنّي لن أخيّر في انتقاء أمّ ولدتني بعد نشوة عابرة وعاملتني كشيء مكروه ثمّ رمتني، لكن لمَ يحرّمون عليّ اختيار عقيدتي وكيف أغيّر نزعات فكري ومسار حياتي واكتساني سكوت مهيب ووحدة قسريّة، ورسمت بسمة قهر لأنّ قمة الصبر التبسُّم وفي القلب نزف يبوح.

قررت الانسحاب وشاغلتني إيماءات تسويف وتململت كليمة ساحبة ورائي

ذيول خيبتي لفشلي بنزع اعتراف بشرعية وجودي، لكنّ نظرات مخائيل تترصدني باسمة وصافحني بلهجة حيية "كيف حالك ماريا شو أخبارك؟" شهقت بفرح، ترك مكانه وأحاطني بذراعه وطبع على خدّي قبلة "هاد حاسوب عربون محبة لنتواصل عالنت" فاحتضنتُه بفرح كحلم ملكني، لم أصدق كلماته التي وقعت كسحر على ذات قاتمة وصدحت بأذني كركرات ضحكاتي العالية، حدقت بالوجوه لألتقط أثر كلماته التي أثارت بلبلة صاخبة، وجه جدتي يتراكم على بعضه عبوسا وفحيح خالتي مرعب، خالي طوني يستشيط غضبا ضاربا كفا بكف.

تجاهل خالي مضامين غضبهم التي تناثرت حوله واحتضن كفي بدفء لم أعهده طوال عمري "عرفت كل شي عن ظروفك ورح أعملك فيزة هجرة كندية، الغرب علمني أنك حرة بعقيدتك، بشرط تخلعي حجابك لأنو رح يسببلك مشاكل في شغلك" كلماته بددت استيائي وحققتْ وطراً منشوداً في ثنايا وجدانِي، سرّني اهتمامه ورأيت العنفوان والألق في قامته الطويلة وبانت حقيقة إنسان راقٍ مهذب ترك انطباعا رائعا مغايرا لِمَا تخيّلتُه، اطمأننتُ لقلب يختزن حنانا ويخفي حزن اغتراب لم يستشفه غيري.

لاعبتني أفكاري ونازعتني نفسي لخلع الحجاب مثل آلاف المسلمات، ولأنّي أشتهي أن يتطاير شعري وأرتدي البنطال الضيق، فالأسواق مليئة بإغراءات الموضة وقد غلبني حبّ اتباع خطوطها مثل أمّي وعمتي وكأنّي وريثة مزاجهما، فالحجاب وضعني في هيئة المرأة المسنّة لضخامتي، قلت له "ياريت أهاجر، رح أفكّر بخلع الحجاب" ردّ برويّة "خذي وقتك ومعاملة الهجرة بتجهز بعد سنة، رح أساعدك لظروفك وأشغلّك بمكتبتي" بكيت فرحا لأوسع طاقة فرج، وبعث الوعد راحة سرت بأوصالي المبعثرة، وأضاء سياق الأمل، والزمن سيمنحني فرصة للتفكير بالمتاح وبتبعات عرضه للخلاص من التيه في محطات موهنة.

٦

عامة الشعب لا يعرفون ما يجري ولا يعرفون حتى أنّهم لا يعرفون
«نعوم تشومسكي»

سافر خالي وعملت في مركز للتجميل لأحيا زمن انتظار آملة بوعد الهجرة، وأوغلت بي تساؤلاتي، أما زال لديّ مقدرة تؤهلني لدور الضحية! هل أستطيع الفرار من قدري الذي ينصب لي الشباك وكأنّي سمكة تقفز من شرك لآخر بإرادتي أو غصبا عني، أيّ امرأة أنا يصعب عليها محو حلم الالتقاء بزوج مناسب، لم أدرك مغزى الحقيقة الأزليّة، إذ لا أمان في زمن التناقضات الخُلقية وترسّخت لديّ فكرة، لا زواج عند حدود الابتذال.

انصبّ اهتمامي على أحداث الربيع العربي وتابعت من التلفاز تدفق الحشود العربية الداعية للتحرر من ساديّة وعبوديّة بعض الحكام، إنّها ثورات وانتفاضات هنا وهناك للفوضى الخلّاقة الحُبلى بويلات حارقة للأخضر واليابس، شباب يُقتل لأجل إقالة رئيس وأنظمة تتلاشى، هل هي صحوة ضد الظلم الذي صار سلوكا اجتماعيا وحكوميا؟ هل يستقيم ميزان العدالة أو يغدو اعتدال انحرافه وضع ميئوس منه؟ بل هو صراع الدين والسياسة لمساندة مصالح الغرب.

قرأت "لجراندلي" الذي كتب عن ما يحدث "الربيع العربي سيفشل ذريعا وجميع المؤشرات تدلّ أن ما سيأتي بعده أسوأ بكثير مما كان قبله" ونقلَ جراندلي عن أحد دعاة الحرية المعارض للأجندة الأميركية رون بول "أعلم أنّ وكالة المخابرات الأميركية قد تورطت في الكثير من العمليات الانتخابية لكثير من دول العالم لانتخاب حكام مستبدين، ولا أظن أنّه يوجد شك بأنّهم متورطون بصنع الثورات التي تجتاح البحر المتوسط لاختيار الحكام المستبدين القادمين".

لقد تعاطفت مع الشعوب المضطهدة والمسلوبة الثروات، رأيتهم يرفعون

شعارات رنانة غير مجدية، كأنّهم قردة تتقافز على خرائط كالزرائب خائفين من حكام قد يجعلون كراسيهم مطيّة لظهورهم، ويلوّحون لهم بأسواط تلسع احتياجاتهم، إنّها ثورة الجياع من أجل كسرة خبز وكساء ساتر للكرامة، لكنّها ستؤدي بهم لجوع أشدّ قسوة، واندحارات ستكون وصمة عار في جبين التاريخ لأنّهم يثورون ضد أباطرة مستبدّة، ليحكمنا الأكثر استبدادا بتغطية دوليّة، ألم نعد خير أمّة أخرجت للناس!

رأيت من خلال البرامج الوثائقيّة المؤرشفة لذكرى تنصيب هؤلاء الحكام التي تموج بمظاهرات التعظيم والتأييد، الحاكم يلّوح بيده تحايا الفوقية وابتسامة الكبر تبارك تأييدهم، فتساءلت هل كانوا يجرونهم عنوة لإشهار الولاء والانتماء، هل التمجيد لوّث الحكام بمرض الكبر والعظمة وأعطاهم مبررا لسلب ثروات الشعوب وجعلهم يلهثون وراء الفتات، ويتفننون بتعذيب وقتل من يتصدى لجبروتهم ويكشف ألاعيبهم ويحتفظ لنفسه وخاصته بثروات الشعوب، وإن احتجت الشعوب تقتّل بساديّة أو يرمون بهم في غياهب السجون لتلقى أشدّ ألوان التعذيب.

في الجاهلية كانوا يصنعون أصناما من التمر ليعبدوها ثم يأكلوها، نحن في زمن نصنع من البشر أباطرة نمجدهم بألقاب التعظيم ليذلونا ثم يسحقونا فقرا وعبوديّة، ويتّبعون نهج أنظمة تبيح قوانينها سبل القمع بأنواعه، ويبتعدون عن نهج دين ساد بالرحمة والعدل أمما سادت وبادت، ليتهم يدعون للجهاد على النفس الأمّارة بالسوء لتقويم المعوج من سلوكياتهم ولثورة على ذواتهم لاتّباع ما أمر به الدين الإسلامي الحقّ ضد عوامل الشر، ليتهم يرون أنّ المجازر العربية التي تنفّذ بأيد عربية والتي تبدو في ظاهرها صراعا على السلطة إنّما هي ثورات لتغيير الأنظمة وفق مصالحهم الدينية والسياسية والاقتصاديّة.

١ – معلومات التراث الثقافي الأردني بتصرف من الشبكة العنكبوتية.
٢ – من كتاب "ما بعد الربيع العربي لِجون أر براندلي".

***

٧

كلّ شيء بأتي في وقته، كلّ شيء بأتي عندما تكون ناضجا،
كل شيء بأتي عندما تستحقه، تلك تجربتي
«أشو»

كثيرا ما ألحّت عليّ نوازع الصبّا خلع الحجاب، لأنّه يحرمني التأنق لإبراز جمالي وكان عائقا لتوظيفي في بعض الشركات، أشرق أملي خلف وعد خالي الذي يسعى لعمل فيزة الهجرة، وتحت مبدأ للضرورة أحكام غلبتني وسوسة الشيطان فخلعته لمدة شهر، لكنّي عشت صراعا نفسيا مريرا وندمت أشدّ الندم وعنّفت ذاتي لأني ضعفت تحت وطأة الاحتياج، وعددته ابتلاء من مجمل الابتلاءات التي واجهتني، فأرسلت لخالي إمّا أن يقبل ماريا المحجّبة أو يصرف النظر عن عرضه لأنّي اعتدت نمط ظروفي المعقّدة لكنّي لن أحتمل ابتلاء إيماني.

عتبت على من تشكك بمصداقية إسلامي لغايات خفية. والتزمت أداء فرائضي وما أستطيعه من السنن متجنّبة المعاصي قدر المستطاع، ولن أرتد عن ديني مهما طحنتني الظروف، فأنا كأيّ إنسان أخطئ وأتوب والمؤمن مبتلى والصبر على البلاء عبادة، وهناك الكثير ممن لا يدركون جوهر الإسلام يبتعدون عن نهجه المتكامل لجهلهم بأحكامه ولطغيان شهواتهم، توكلت على الرزّاق الذي يسّر لي مهنة وقتني شرّ العوز والعيش على قارعة الطريق، آملة تغيير حظي المقيت المُتفق على صعوبة احتماله.

اتصلت بي صديقة تعلم بشذرات معاناتي وأخبرتني عن رجل يرغب الزواج بي حرصا على ديني بعد معرفته لحكايتي، ولا هدف له سوى الستر ولديه سكن مستقل يريد تسجيله باسمي إظهارا لحسن النوايا، في البداية رفضت لفقداني الثقة والقدرة على تحمّل تبعات الزواج والطلاق، لكنّها أصرّت وأقنعتني بلقائه وشهدتْ له بالتقوى وحسن الخلق، وافقت بعد طول تفكير وحيرة.

التقيت معه، لم يكن وسيما لكنّ سيما التقوى جمّلت وجهه وأقواله، ارتحت إليه وكأنّ شجيرة أمل أورقت في صحراء أيامي وطلبت منه إعطائي مهلة للتفكير حتى لا أتخبط في تجربة لا أعرف مصيرها، لأنّي لم أعد أثق بفراستي حتى لو امتلكَ مزايا أتمناها، في الاتصال الأخير طلب الردّ، وافقت على الزواج منه وأصرّ أنّ خير الأمور عاجلها واتفقنا على اللقاء بعد أسبوع في التاسعة صباحا عند موقف الباصات في محطة الجنوب للتوجه إلى مدينة الكرك جنوب الأردن لعقد القران عند مختار عشيرته.

وصلت المحطة قبل الموعد بساعة، وانتظرته مع حقيبة تحوي بقايا حطامي من الدنيا، كانت المدينة ترتدي فصل الخريف وتوزّع الكآبة بين أجوائها، الريح تبعثر أوراق الشجر الصفراء في دروب نائية، الغيوم تتراكم ليصبح لونها رماديّا قاتما وأشعة الشمس خانعة توارب ثنايا غيوم قانية، خلت الخريف يلازم حياتي، ساعتي أوقفها العوز عن الدوران لتخنق رسغي، نظرتُ للساعة المصلوبة على حائط المحطة، فالوقت المحدد لم يأزف بعد، لكنّ عقرب الساعات خامل وعقرب الدقائق يدور ببلاهة.

صفعني هواء مشبع بالرطوبة وتحوّل نثيث المطر إلى زخّات صغيرة تتجمع على الإسفلت في بحيرات صغيرة رقراقة، سرحت بأحوال صديقاتي اللواتي اخترن المستقبل بمساندة الأهل لتكوين أسر سعيدة، وأنا لم أختر تفاصيل حياتي وأرغمت التعثّر بخطواتي لظروف أغلقت عليّ كدائرة محكمة فأثار ما حفر على جدران اللاوعي من ظلم لكياني، وكأنّي آخر أنثى لذريّة أهلي مؤتمنة على خيباتهم ومتعثرة بأخطائهم الشائكة، عاودت ذكرى محن عابرة وخلت نفسي طفلة تحبو على بطنها لتلتقط كسرة خبز أو تستظل بصدر حنون، فالعمر يقاس بلحظاته السعيدة والأماني المتحققة، رغم قسوة التفاصيل شعّ نور مدّني بزخم البقاء إنّه نور الإسلام وبهاء الأمومة وحبّ لوّن أيامي بالسعادة.

الحافلة تنتظر لتبتلع روّادها، الزوج المنتظر لم يصل بعد، لعلّ هناك سببا للتأخير، حمدت الله ورفعت شعار تيه يؤكد أن الدنيا لا أمان لها بلا سند، دفعتني غربة المكان للتجول بأنحاء قريبة باحثة عنه بعيون مترقّبة بقي ربع ساعة للانطلاق، رأيت ولدي فجأة من بعيد مع أبيه مرتديا معطفا رماديا وزوجة أبيه تسير يساره مع أخته، اندفعت بكلّ حنين إليه رغبة برؤيته قبل أن أبدأ حياة جديدة، وكأنّ القدر ساقه لي لأودعه.

أسرعت إليه وروحي تهفو فوق نداءاتي وفوق هدير الحافلات وصخب الناس، واحتضنته، لكنّ سامر الوهابي نعتني بأقذر الصفات، إذ بابني يبصق بوجهي ويردد قول أبيه "روحي يا عاهرة"، أدمت قلبي سبّة ابني وأيقنت أنّه ابن أبيه وابن بيئته الفاسدة ولا تربطني به إلا الدم، استقلوا سيارة أجرة لعوالم لم أدركها، وتهاوت صروح الحياة داخلي، وعدتُ مخذولة للحافلة إذ بها قد غادرت الرصيف " فالقطار لا ينتظر من لا ينتظره".

وقفت على الرصيف حائرة وصوت مذياع المقهى يغني"يا وابور قلي رايح على فين"، هل وصل الزوج المنتظَر في اللحظة الأخيرة واستقلّ الحافلة موقنا بوجودي فيها؟ أم لم يصل لأنّ وعده عبثيا، اجتاحتني حومة انتظار لأنّي وعدت نفسي بالانتظار على مفترق كلّ الطرق، وتساءلت، هل أنتظر زوجا يحميني من الضياع وبيتا يأويني وصدرا حنونا يدفئ صقيع غربتي أو ابنا بارّا بأمومتي، أو أمّا تورق عليّ حبّا، غادرتْ روحي كلّ الناس والأزمنة ونخرت حكايتي ذاكرتي، ولفّتني شيخوخة واهنة وكأنّي أجدف ضدّ كلّ تيّارات الاندثار، وباءت حياتي بالفشل لأتهاوى كالأشجار واقفة، لكنّي لن أنحني لأحد.

* * *

تمّت بحمد الله

الفهرس

العنوان	الصفحة
١ - ذكريات مأزومة	٥
٢ - واحة الإيمان	٤٣
٣- خيباتي	٦٥
٤ - ومضات فرج	٩٧
٥ - آخر الأبواب	١٤٠

❊ ❊ ❊

التنضيد الإلكتروني والإخراج الفني
قسم الكمبيوتر في / دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ ـ عمان ١١١١٨ ـ الأردن
e.mail: alhassanpub@hotmail.com